حســـــن داوود

أيّـــــام زائـــــدة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

رواية

دار الجديد

حسن داوود

أيّام زائدة

رواية

دار الجديد

© ١٩٩٠
الطبعة الأولى
دار المستقبل
ص.ب : ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان
☎ ٨٣٤١٣٤ ـ ٢٩٣٨٧٤

I

بحسب التذكرة الملصقة عليها صورتي وانا في الاربعين، انا الآن في الرابعة والتسعين. كنت لسنوات خلت أقول إنني أصغر من قيدي بثلاث سنوات، فقد سجّلني ابي في سنّ شبّان اعرف انهم من غير جيلي، تهريباً لي من الخدمة العسكرية. حين كنت أقول ذلك قبل عشر سنوات او عشرين، كان رجال بعضهم من أولادي يجيبون انني أكبر من قيدي بثلاث سنوات لا العكس، اذ الأحرى ان يدّعي أبي انني صغير على الخدمة، وكانوا يذكرون حكايات عن مجايلتي لابو علي يوسف والحاج علي فرحات اعرف انها غير صحيحة، ما داما قد ذهبا في رحلتهما الأولى الى فلسطين وانا ولدٌ لا أترك وحدي مع البقرات.

كانوا يذكرون احداثا اكون فيها كبيرا. والحاج علي فرحات كان يؤكد ما يقولون لأن سهراتنا معا، في السنوات التي سبقت موته، جعلته يظن اننا كنّا دائما هكذا، صاحِبَيْنِ متجايلين. كانوا يصرّون على ما يقولون عن عمري، والاخبار التي أرويها لهم، والتي يجدونها قليلة ولا تتغيّر، لم تُثنهم عن ظنّهم، فيروحون، كلما عادوا الى الحكي، يكرّرون ما اعتادوا قوله، حتى بتّ، أخيراً، مقتنعا بعدم جدوى ذكر الحكايتين او الثلاث التي لم اكن أجد سواها صحيحاً.

حتى انني لم أعد اتذكّر اشياء حصلت بعد ذلك التاريخ بسنوات كثيرة. واجهةُ الفرن الذي أخذتُهُ في باب ادريس لم تعد عالقةً في رأسي فرحت أرى مكان رفوفها الحديديَّة أجزاءً من واجهات متفرقة لأفران اخرى بعضها لم يكن لي. أضع قدمي على بلاطة الرخام المبرية في مدخل الفرن، فأجد أنني دخلت الى الفرن الذي أخذه أخي الحاج سليم في رأس بيروت سنة الخمسين. وأجدني فيه ايضا، على كرسي ثقيلة يُعدني الحاج سليم عليها ويحادثُني فيما هو يبيع الخبز ويحكي مع الشغِّيلة، وأنا أشقى عليه لأنه بدأ الشغل بعد أن زاد عمرُهُ عن الخمسين.

لم أعد إلى ذكر الحكايتين أو الثلاث. قبل ذلك كنت أحذف من الحكاية شيئا او كلمة، وفي مرَّة تالية، أحذف شيئاً آخر او كلمة اخرى، حتى صرت، بجملة واحدة أذكّرهم بها تذكيراً. أقولها بصوت يطلع عاليا واسكت فجأة في نهايتها، كأنني سلَّمتُ لهم بالسنوات الستّ التي لها لا يكون احد من العائلة قد وصل الى ما وصلته من عمر. لكن رغم ذلك صرت أسكتُ حين يبدأون بذكر الاعمار. في المدّةالأخيرة بتُّ أخلط أمامهم بين الأيام فأؤخّر عيد واحد من اولادي ثلاثة أيام أو أربعة فيذكّروني بأن ذلك حدث أول أمس لا نهار الجمعة. وبعد كل مرة كانوا يصحّحون فيها لي أزداد اقتناعا بأنهم على حق في انني أكبر بثلاث سنوات مما أنا في التذكرة. ستُّ سنوات، هكذا، دفعة واحدة، كأنني هويتُ فجأة في حفرة عمقها ست سنوات كاملة. أُسلِّم لهم واقتنع معهم لأنني أفقدُ القدرة على التمسُّكِ بعمري الحقيقي، وهو أمر يتطلب تشبثا وعنادا لم اعد أمتلكهما.

حتى أنهم لا يقبلون بالعمر المتوسط المدوَّن لي في التذكرة، والذي صرت، منذ توقَّفت عن مجادلتهم، أعتبره عمري الحقيقي. حين يزورني واحد من أحفادي أعطيه التذكرة ليقرأ لي. ينظر الى صورتي وأنا في الاربعين ويسألني عن فرن ساحة الدباس الذي تصوَّرتُ، في الأشهر الاخيرة من تشغيله، أسوة بأعمامي الثلاثة الذين وزَّعوا صوَرَ هُمْ على بيوت العائلة. أُجيبه بكلمات قليلة كنت قلتها له في

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

زيارته الماضية . يسأل أسئلة اخرى فأعيد له ما اجبت به ، مرَّةً اخرى . يظن انني لا اعرف سوى ذلك . ابن عمي الحاج يوسف رَفَعَ صوتَهُ في وجه الرجل الغريب الذي أتى يتسوَّل في ضيعتنا . لم يعجبه ما أعطيته فقال لي كلمات قاسية من القرآن . انا لم اعرف بماذا اجيب . رفع الحاج يوسف صوته في وجهه وقال له كلمات من القرآن أيضاً ، لكن كأنه يشتمه .

لا أتكلَّم ولا أتذكّر . بل أرى أن من لا يحبُّون الكلام لا يعرفون كيف يتذكَّرون . ابن عمي الحاج يوسف كان يخبرني حكايات عن بيتنا ، وهو أصغر مني ، عن أبي وامرأته خالتي وعن رجال كثيرين ميِّتين .

لن يقبلوا عمري الذي في التذكرة . حتى انهم يزيدونه سنة في الشهر الواحد . بين زيارة وأخرى يزيد واحدهم في عمري سنة . يزيدونه على قدر ما يغيبون . عند بعض أحفادي أنا في الخامسة والتسعين ، وعند بعضهم الآخر في السابعة والتسعين ، أو أكثر بسنة . يستعجلون بلوغي المئة . وانا اعرف ذلك فأقول لواحدهم حين يأتي إنه لا يجوز وأنا عمري مئة سنة أن أُترك من دون أحدٍ يطبخ لي . وهم يُخفضون رؤوسهم حين يصلون الى نافذتي لكي لا أراهم صاعدين الى أهلهم في الطابق الذي فوقي . أراهم وأنا نائم على سريري العالي القريبةُ فرشتُهُ من حافَّة النافذة . أصرخ لمن أراه على الدرجات فيأتي إليّ . يقول إنّه حسبني نائما ولم يشأ أن يوقظني . أظل نائماً على سريري . دقيقتان فقط ويذهب . هذا الذي كنت أعطيه مئة ليرة ليقبل أن يقصَّ شعره .

لم اعرف احدا وصل الى المئة . ابو محمد نسيم قالوا عنه انه بلغها لكنني اعرف انه كان دون التسعين حين مات . كان أهله يزيدون عمره سنوات في الأشهر ، ولما وجدوه ميتاً في الجل كبروه سبع سنوات اضافية دفعة واحدة . قالوا ان عمره مئة وسبع سنوات .

لا أعرف أحداً وصل الى المئة . ودائما أفكّر كيف سأعيش ان بلغتُ هذا العمر الذي لم أرَ أحدا فيه . قبل ذلك ، منذ سنوات كثيرة ، كنت أتأمل رجالا أكبر مني لأرى كيف سأكون بعد عشر سنوات مثلا ، كأنني بذلك أتعلم الدخول في أعمار لا أعرفها .

أنا الآن في الرابعة والتسعين . في البيت الذي بنيتُهُ من قديم لصقَ الغرفةِ الكبيرة التي كانت لأبي . تركوها فارغة خالية بعدما اهترأ جذعان من الجذوع التي تحمل سقفها وتساقط التراب منه الى الارض . قلت لابني قاسم إنها ستقع قبل أن يُبلّط سطحها ويضع في وسطه بركة الماء الثقيلة . عمّر بيته فوقي ، وامرأتُهُ امتنعت عن خدمتي منذ وقت . تنظر اليّ من شرفتهم في الاعلى كأنها تستعجل وصول أحد ليراني وأنا أصبُّ الماء في الابريق ، أو أغسل ثيابي على المصطبة ، أو أدير الماء ، وأنا أهتز وارتجف ، في السخانة التي قليت بها بيضاً .

لم يَبنْ على المرحومة فاطمة شيء حتى اليوم الذي سبق موتها . قلت لها سامحيني يا فاطمة ، فأدارت رأسها الى الناحية الاخرى . سألتُها مرة ثانية فلم تزح رأسها عن حافّة المخدّة . لم أستطع أن أرقّقَ صوتي مثل الكثيرين الذين وقفوا ينظرون إليها نائمة على فرشتها وسط غرفة أبي العتيقة . ولما تقدّمتْ نحوها زوجتي وقالت لها سامحيه يا فاطمة جعلت تبدو كأنها لم تسمع . خرجتُ من الغرفة المعتمة وأمام عينيَّ درنتُها الكبيرة التي في أسفل رقبتها . في أيّامها الاخيرة كانت تقف خلف زجاج نافذتنا تحدّق فينا ونحن نأكل . أراها وأصرخ بالحاجة خديجة : قولي لها ان تغطّي درنتها ، اذ تبدو لي بعروقها الزرقاء الرفيعة مثل شقفة من كرش بقرة . كنت في السبعين واستطيع ان اراها في العتم . أذهب الى البيدر في الفجر أمسك الخيشة الكبيرة بيد والمذراة باليد الثانية ، وأملأ التبّانة في يومين وحدي . كانت رجلاي ما تزالان قويتين حين سقطت المياه الزرقاء على عينيّ . لم أقبل أن أذهب الى المستشفى حين أتى أولادي الرجال ليأخذوني اليها . قاسم ، الاوسط ، رفع

صوته عليَّ ودفعني دفعاً الى السيارة . تعثَّرت وأنا أنزل الدرجات الاربع الى ساحة الدار. عرفت ان المرض سيصل الى رجليّ وجسمي فكلّ الرجال الذين عرفتهم كانوا يبدأون موتهم من ضعف واحد في أجسامهم . الحاج عبد اللطيف كان يقف منتصبا قويا بعينيه اللتين ملأهما البياض بينما رأسه يهتزّ يمينا وشمالا كأنه بذلك يُبقي مرض عينيه في رأسه ويمنعه من أن ينحدر الى جسمه . يهزّ رأسه الوقت كلّه ويضغط بيده أيدي مصافحيه فيما هو يكلّمهم بلهجته البيروتيّة التي تُظهره مبتسما ضاحكا . أبعدتُ صورةَ الحاج عبد اللطيف من رأسي وأنا في السيارة لأن اختلافَه واختلاف اقربائه عن أهل الضيعة يحولان بيني وبين أن أكون مثله . أولئك الذين لا يعيشون مثلنا لا يمرضون مثلنا . وانا، في تأملي حال من كانوا اكبر مني بعشر سنوات او عشرين، لا أُبقي وجه الحاج عبد اللطيف طويلا امامي اذ يبدو لي أن العمر يجري عليه خلاف ما يجري على سواه . ليس الحاج عبد اللطيف مثلي بل مثلي الرجال القاعدون على مصاطب بيوتهم في الشمس . يرفعون عيونهم نحوي مغتبطين بكسلهم ودفئهم فيبدون مثل الرجال القدماء الذين كان يحكي الحاج يوسف ابن عمي حكاياتهم .

أنا الذي أعبر بينهم مسرعا في عودتي من البيادر يكفيني أن أتذكّر آباءهم لأعرف كيف سأكون . وأعرف ان وقوفي بنيهم صائحا معليا صوتي لن يغيّرني عنهم . ولن يغيّرني نزولي الى البئر وأنا في السبعين، بينما الرجال الممسكون بحبلي ينتظرونني خائفين حول فتحته . كنت اعرف أنني لن أكون الا مثلهم . لا الحاج عبد اللطيف اذن، بل الحاجة زاهية، الضريرة، القاعدة وحدها في غرفتها عند أسفل الجل تحت بيتي، والتي تتحسس بقدميها الطريق التي تعرفها الى الخلاء، وتدير رأسها في الاتجاهات، كأنها تستطيع أن ترى، قبل ان تُنزل لباسها وتقرفص كاشفة عن لحم مؤخّرتها الابيض المتغضّن . ما أراه يسيل مندفعاً منها في اللحظة التي تسبق ادارتي لوجهي يذكّرني بما كان يفعله الناس القدماء الذين حكى الحاج

يوسف حكاياتهم . مازلت احكي . الى الآن ، اللهجة التي أخذتُها عن أهل بيروت . لكن ليست تلك التي ينطق بها الحاج عبد اللطيف وتجعله ، في الابتسامات التي يُنهي بها جمله ، شبيها بالنساء . يُكثر من الكلام مثلهنّ ، ومثلهنّ يُطيل القعود في بيته بين ابنه وجيرانه وأراكيله . حين تصل سيارتهم الى بيتهم يستعجل جيرانهم السهر عندهم فيأتون رجالا ونساء من البيوت القريبة المتفرّقة . يُقعدهم الحاج عبد اللطيف حوله ويروح يحادثهم بلهجته الباردة التي تكشف عن بياض وجهه واطرافه . ابنتي بهيجة كانت تقف بطولها مثل رجل حين تأتي لتزورني في بيتي . لا تبقى طويلا . لا تزيد عن الوقت القليل الذي يتطلّبه السؤال عن صحتي ونقل الأكل الذي احضرته لي من الاكياس الى الخزانة . تقف وقتا في ساحة الدار تقلّب نظرها في زرّيعات الاحواض اليابسة ، ظانّة انها تزيد بذلك من وقت زيارتها لي . وأنا لا أقوم لها من سريري . اظل ممدّداً عليه منتظراً خروجها من بوابة الدار لأزيح اللحاف عني وأُنزل رجليّ الى الأرض . يأتون لزيارتي ولا يقعدون إلا قليلا . يدخل أحدُهُم من الباب ويكبس زرّ الكهرباء لتُضاء الغرفة ، ثم يرتّب ادويتي وساعتي وعلبة تبغي واغراضي الاخرى الموزّعة بين السرير وسطح الدفاية والكنباية ، ويفتح شبّاك النافذة لكي يخرج من الغرفة الهواءُ الوسخُ ذو الرائحة .

ولا اجد شيئا اقوله في وقت الزيارة القليل . ابنتي بهيجة لا تمهلني حتى اتذكّرها وهي صغيرة في البيت ، فأكلّمها كما لو كانت واحدا من اخوتها الرجال طالما انها تحكي في الاشغال مثلهم . ابو فايز ، ابني الكبير ، ينهمك حين يأتي ليّ بترتيب الغرفة ويعيد ترتيب اغراضها مرات من اجل ان لا يبقى متسع للكلام بيننا . أراه ينحني على الارض بجسمه الكبير الثقيل ليلمّ نتف الخبز الصغيرة . يفعل ذلك وهو يلهث من عمره وكبر جسمه . اقول له أقعد يا ابو فايز فيزيد من دورانه الثقيل في المساحة التي لا اشغلها من الغرفة . وحين اخذت اشكو وأئنّ من وجعي قال لي انه عليّ أن اتوقّف عن الخوف من الموت . قالها متذمّراً ومؤنّباً

دون ان ينظر إليّ كأنه يوجّهها الى رجال موجودين معنا في الغرفة . لا يرضون مني بأكثر من الاجابة عن اسئلتهم المتعلقة بصحتي ، ينتظرون مني كل مرة أن أجيب بحمد الله وشكره . يسألونني كيف أشعر فأقول الحمد لله ، اجيب بما هو مُنتظر مني فيما هم يقفون في الغرفة مقطّبين لكي لا تفسح وجوههم لشكوى واحدة اقولها عن أرقي وعن البرد الذي يذهب بأطرافي كلما خرجت لأبول في ليل بدأت اخافه من قبل ان تموت الحاجة خديجة . كانت تنام في الغرفة الثانية المعلّقة على حائطها صورة احفادي الميتين . عرفت انها تخاف من النوم مثلي حين رأيتها تدير سريرها بمفردها لكي لا تقع عيناها على صورهم . تقعد على حافته وحدها مغمضة عينيها تنتظر أن يُثقلها النوم فيما اسمع لها صوتا يشبه اصوات القطط التي تطلع من بطونها . قلت لها قومي نسهر يا حاجة . كانت تتخذ الوضع نفسه في بيت الحاج علي فرحات . تُعلي رأسها وتُغمض عينيها أمام الحاجة مريم القاعدة مريضة في سريرها بينما ننشغل انا والحاج علي فرحات بلفّ السجائر وبيصقِ بقاياها التي تعلق بألسنتنا .

جعلنا نسهر في بيتهم كلّ ليلة . يسبق واحدنا الآخر الذي يلحقه بعد وقت قليل . شعرت أيامها اننا بتنا في آخر الحياة طالما اننا نفعل الشيء نفسه كل يوم . نحكي عن اولادنا في بيروت انا والحاج علي فرحات الذي كان يقوم في أول السهرة ليغلي لنا شايا . في بيتهم كنت أرأف بالحاجة خديجة التي اراها غافية وتقوم حين اقوم . اشعر انني قريب منها في بيت الحاج علي فرحات واشفق عليها لأنها صارت في آخر عمرها ، لكن أعود فأنسى حين نكون معا في بيتنا . اصرخ لها من غرفتي لكي تحضر ماء فتعبر الباب من امامي بينما يعلو صوت القطط فيها ويتحول الى تذمّر رتيب تظنّ انني لا اسمعه . اصرخ بها مرة ثانية فتسرع فجأة كأن احدا دفعها من الخلف ، لكن لا يتوقف صوتها وهي تدلق الماء في الابريق .

لم افقد صوتي الذي ظلّت الحاجة خديجة تخافه حتى ماتت . كنت أدفعها به

دفعا لتكنس غرفتي فتروح تضرب بالمكنسة ضربات خفيفة على الارض. لا تتكلم الا هكذا في غرفتينا اللتين يفصل بينهما باب تغلقه الحاجة خديجة كلما خطت من فوق عتبته. أصرخ سائلا اياها ماذا تفعل هناك في غرفتها. وحين ادخل لأحضر شيئا من خزانتي التي ابقيتها عندها ارى ان لغرفتها رائحة تختلف عن رائحة غرفتي. احسب انها رائحة الخرز الاسود العتيق في مسبحتها الطويلة تملأ هواء الغرفة كلّه، لكن لا تصل الى المتاع في خزانتي التي اقفلها بالمفتاح. أخرج وأُغلق الباب ورائي مثلها اذ لم اكن احب ان اراها وهي تخلع ثيابها او تبدّلها. الحاجة خديجة لا توسخ ثيابها ولا تعتقها. ظلّت ثيابها معلّقة في الخزانة عشرين او ثلاثين سنة وبينها كبوتها الاسود الذي يذكّر بجسمها القديم. لا تُعتق ثيابَها ولا توسخها. كأن شيئاً لا يخرج من جسمها الذي تقتصد في انفاقه. كانت تحسب انها توزّعه على حياة اطول، بينما انا وقفت في جنازاتهم وعلى بدني القمصان التي بليت اكمامها وقبّاتها.

بكيت على الحاجة خديجة، ورأوني جميعهم امسح دموعي بكفيّ وأضرب عصاي على قبرها واقول لها متِّ وتركتني وحدي يا حاجة وأهزّ جسمي النحيل الذي ظنوا انه لن يصمد طويلا. كنت ابدو ضعيفا متلاشيا على المقبرة، لكنني أتغيّر حين اعود الى البيت. ظنوا انني سأموت يوم دفنوا ابنتي. ظلّ أولادها الثلاثة يبكون على الكراسي في الحسينية بينما أبوهم يتلو الآيات على المنبر كما يفعل لكلّ الميّتين. لم تجعله السنوات الكثيرة قريبا مني وكنت أسلّم عليه كما لو أنه واحد من اقربائه. فكّرت وانا في الحسينية انني ابقيت ابنتي كل تلك السنوات مع رجل لا اعرفه. يفرج شفتيه وهو يتلو الآيات مثل رجل يقلّد سواه. ليس قريباً إليّ، ومثله اولاده الثلاثة الذين تنتفخ خدودهم حين يبكون فيبدون لي مثل صنّاع من ضياع اخرى.

صار اكثر خروجي الى المقبرة منذ توقّفت عن الذهاب الى بيروت. لم أبك على

الحاج سليم اخي الذي كان جاري في الدار ولا يفصل بين بيتينا الا الخطّ الباطونيّ الضيّق الذي كثيرا ما تنازعنا على حدّه. حتى انني كدت اهدم حائط مصطبته مرّات لأنه قدّمها مترا في أرضي. يعلو صوتي عليه وانا قاعد امام غرفتي فيجيبني من مصطبته بصوته اللئيم. كدنا نتشابك بالأيدي مرات يأتي أولادي في آخرها ليقولوا لي باننا عجوزان نتقاتل مثل صبيّين صغيرين. لم أبك على قبره، حتى أنني كنت اتكلّم عنه بعد موته كما لو انه مازال حيّاً. قال لي السيد مهدي إن السنوات لا تزيد الاخوة الا كرهاً. هو السيد مهدي الذي تلبس عائلته جبّةَ المشايخ ابا عن جد، والتي يبدو فيها الابن شبيها بأبيه والأخ بأخيه. فكيف بنا أنا والحاج سليم اللذين لا يجمعنا شبه، كأننا رجلان من عائلتين مختلفتين.

ليست اقامتنا معا في الدار هي التي باعدت بيننا فأخي محمود الذي سكن بعيدا عنا لم يكن اكثر قربا إلي. كنت أجده شبيها بجيرانه الذين اقام بينهم. لكنّنا لم نكن نتقاتل كما نفعل انا والحاج سليم. وفي الأوقات التي جمعتنا كان يحكي لي عن أبينا وأمّنا. في أرض الغبرة المقسومة بيننا نصفين نطوف معا في الجلول فيما هو يشكو لي من أمراضه من أجل أن يذكّرني بالأوقات التي كنا فيها صبيين في بيت أبينا. لم يؤثّر ذلك فيّ طويلاً، وحين نخرج من أرض الغبرة لا اعود اعرف بماذا يجب أن أشعر نحوه. بدا غريبا بيننا في بيوت أولادي ببيروت. يظلّ قاعداً ساكتاً الوقت كلّه ولا يعرف ماذا يفعل حين يدعوننا الى الطعام. أقول له قم يا ابومصطفى، فيضعف صوته وتتّسع عيناه.

لم أبك يوم دفنه هو ايضاً. حتى أنني لم أذهب الى بيتهم بعد ان انفضّ الناس عن المقبرة بل عدت مع اولادي الى بيتي. لم أبك في جنازاتهم. وفي حياتي كنت أزداد نسيانا لهم وابتعاد عنهم مع انقضاء السنوات. لم يبق شيء من القرب الذي كنت أراه في صور اعمامي الثلاثة التي وزّعوها على العائلة. كنت اراها في كل البيوت التي ادخلها تلتمع تحت الزجاج الذي يجمعها. انهم يسهرون معا كل

ليلة، تقول الحاجة آمنة زوجة الحاج سليم. كانوا كبارا في السن وصورهم الثلاث جعلت أولادنا يظنّون أنهم ماتوا معا في يوم واحد. الشيخ محمود المطأطىء رأسه من ثقل العمامة بدا كأنه يستمع الى ما يقوله اخواه المفتوحة عيونهما في الصورتين. وبينهما، على الحيطان، لا يعود الشيخ محمود عالما معروفا في الضياع، بل يصير أخا فحسب.

جَمَعَت الصور، بعدما وزَّعوها، شملَ العائلة الذي تفرّق. فصار الرجال يطوفون في بيوت أقربائهم زائرين كأنهم يحصون أعدادهم. يخرجون من بيت ويدخلون في بيت ويُكثرون الكلام الودود عن ابنة عمّي الأصغر، الفقيرة، لكي لا تبدو لهم مثل النسوة الفقيرات الساكنات قرب بيتها.

جعلتهم الصور يقضون السنوات في إلفة ينقّلونها بينهم. حتى أن عمّي الاصغر الذي عرفته ساخطا على اخويه كان ساكتا صاغرا في صورته التي تظهر رأسه اخفض من رأسيهما. كانوا يظهرون متجانبين على الحيطان كأن أباهم أوصاهم بهذا القعود قبل اربعين سنة من موته. هو الذي مشى في مقدمتهم حين اندفعت العائلة لمقاتلة عائلة اخرى. مشى أمامهم وفي يده بارودته، وهم لحقوه ممسكين بعصيّ الرفوش الغليظة. وفي البيت الذي اجتمعت فيه العائلة في أول الضيعة كان وحده يخرج اليهم وهم متجمّعون على حافة السبيل. الشيخ محمود، الذي لم يكن قد وضع العمامة بعد، كان الاشد بأساً بينهم إذ راح يهوي بعصاه الغليظة على ظهر علي بيرم حتى قتله. دائما كان الشيخ محمود في رأسي رجلين اثنين: رجلا يهوي بعصاه على ظهر علي بيرم، ورجلا آخر مطأطئا رأسه تحت عمامته ويتكلم على مهل مُشفقاً على النساء زوجات ابناء اخوته واولاده. رجلين لم تفلح الا الصورة في جعلهما رجلا واحدا، اذ هو، بعينيه النائمتين اللتين تكادان تدمعان، يبدو كأنه يندم على فعلة دفعوه اليها دفعا.

أنا الذي عرفت كيف عاشوا صدَّقت الصور كأنني ولد صغير. رأيت أن

هيئاتهم هذه هي طبائعهم التي لم تؤثر فيها شجارات الاخوة وخلافاتهم. أحببت الصور حتى انني اتخذت لنفسي صورة، هي صورتي وانا في الاربعين. ألصقتُها على تذكرتي في وقت لاحق، لكن، قبل ذلك، وضعت واحدة كبيرة منها في إطار مذهّب، وعلّقتها على الحائط في فرن ساحة الدباس.

لم أعْمَ. في السيارة التي ارجعوني بها من بيروت كان ابني قاسم واخوه نايف قاعدَيْنِ في الأمام ساكتين الوقت كلّه. أسألهما، لكي يتكلّما، اين نحن، كلما انعطفت بنا السيارة. وكنت أوقفهما حين تنحدر اللفائف قليلا عن عينيّ ليرجعاها الى مكانها. ولما انزلاني من السيارة لم أهتد الى اتجاه بيتي فصرت، كلما خطوت خطوة، اتوقّف، ليرجعاني الى الطريق الصحيحة من جديد.

لم أعْمَ. حين احضروا لي النظارة لم اعرف كيف أضعها على عيني. كانت سميكة وثقيلة وحين يدخل احد من بوابة الدار العريضة أُرجع رأسي وكتفيّ الى الخلف لكي أراه. يظنّ الذي يدخل انني لا اراه فينعطف مسرعاً الى درجات بيت اخي الحاج سليم. لا اعرف كيف بدت لهم هيئتي التي رأيتها غريبة كالحة. أخذت التخيّل كيف تبدو الحاجة خديجة ان وضعت نظّارة في وجهها، او الحاج علي فرحات، او حتى اولادي الذين يملأ الشعر رؤوسهم الكبيرة. لقد أورثتْهُم الحاجة خديجة شعرَها الكثير الذي جعل وجه ابنتي الكبيرة نحيلا مريضا، قبل سنوات من نقلهم إيّاها الى بيروت.

جعلت النظّارة هيئتي غريبة فرحت ألفُّ طرفيها بخيوط و بنتف أقمشة لكي لا تلتمع وحدها في وجهي المتغضّن الكالح. لماذا تفعل بها هكذا يا أبي. يقول لي ابني قاسم فأقول لكي لا يؤذي طرفاها اذنيّ. لم أعْمَ. ولم يصبني ما اصاب الحاج عبد اللطيف الذي ابيضّت عيناه واتسع الجلد الذي يحيطهما وتهدّل كاشفا عن العروق المدماة كأنها أشياء من احشائه. ذلك من انواع الأمراض القديمة، وقت كانت الأعراض تبين على الوجوه والاجسام. لن تولد بنت بدَرنَةٍ كتلك التي بين

رقبة فاطمة وصدرها . ذلك لا يحدث الا من فوضى الناس الذين سبقونا . أراها أمامي وأُخفض نظري الى قدميها الحافيتين غير مقصوصتي الأظافر كأنني أُفهمها بأن تبتعد من أمامي . تراقبنا من وراء الزجاج ونحن نأكل فأرفع صوتي على الحاجة خديجة واتوقّف عن الأكل . قلت لها سامحيني يا فاطمة فأدارت وجهها الى الناحية الأخرى . ففهمتُ انها كانت تحفظ في رأسها سَوْقي لها عنوة الى الجلّ وصراخي، بسببها، في وجه اختها .

كان القاعدون معي يغيّرون قعودهم وحكيهم حين أخلع النظّارة عن عينيّ وأضعها في جيب سترتي . يظنون انني أراهم في اشكال اخرى من خلف الزجاجتين السميكتين . رجعت الى بيتي ولم يُمرضني بصري . أقول لزوجة ابني لأغيظها إن عزرائيل لا يقدر عليّ، فتطلعُ الدرجات صامتة ولا تبدأ التمتمة الا حين تصل الى حافّة الدرابزين المنقوش في أوّل بيتهم . تنتظر حتى تبتعد عني مسافةً لتبدأ الكلام وتظل تهذر فيه وهي تدور بين الغرف . يدفعها كرهُها لي دفعا بين الخزائن والاسرّة فلا تعود تعرف كيف توقفُ جسمَهَا الذي لا يزيده كلامُها إلاّ حركةً وصخباً .

لم تكن تستطيع إخفاء بهجتها حين يشتدّ عليّ مرضي ويخرجونني الى الساحة وهم ينتظرون السيارة التي ستأخذني الى النبطية . تخرج مسرعة وهي تسويّ ثياب الخروج التي ارتدتها على عجل، وتبدو منهمكة، ولكن لا تنظر اليّ . وحين أطلق صوتي عاليا من وجعي لا توقف كلامها مع الجيران الذين تجمعوا على بعد خطوات مني . تُشاغلهم عني، وتحسب ان ذلك يزيد من مرضي الذي يبدو لها كل مرة انه المرض الاخير.

تشاغلهم بالكلام على بعد خطوات مني . وانا ارى انها لن تعود الى صمتها إلا حين يرجعون بي من النبطية حاملا ادويتي وقاطعا المسافة من السيارة الى البيت وحدي . تكون الساحة خالية منهم حين اعود . وحين اخرج الى المصطبة وأقعد

على كرسيي الهابطة اعرف انهم توزّعوا في بيوتهم التي اغلقوا ابوابها . يكون الضوء قويّاً ساطعا في الخارج بينما هم يقعدون ساكتين في بيوتهم المعتمة التي اظل احسبها خالية حتى يخرج من باب احدها ولدٌ او تخطو من آخر امرأةٌ تتقدّم صامتة إلى حبل الغسيل .

II

أنا الآن في الرابعة والتسعين. وبيتي الذي لا اغادره ليس أوسخ مما كان في حياة الحاجة خديجة. عرفت، بعد موتها، ان شغل البيت لا يستغرق طويلا اذ رحت أقضيه في دقائق قليلة قبل ان اقعد على كرسيي بادئا ضجري. أكنس الغبار والأوراق اليابسة وكِسَرَ الخبز وأجمّعها خلف الباب كما كانت تفعل الحاجة خديجة.

الأغراض الموزعة في انحاء البيت تركتها في مواضعها رغم علمي بأن الحاجة كانت تضيع وقتها بتركها الأشياء المتلازمة بعيدة من بعضها. صرت مثلها أتنقل بين غرفة المونة والمطبخ والنمليّة التي في غرفتها كلما أردت أن أعمل شايا، ومثلها أترك الفناجين الدَّبِقَة من السكّر على حافة المصطبة العالية. اصرخ بها حين أرى الفناجين فتتقدم اليها لتنقلها الى مكان آخر.

ليس أوسخ مما كان في حياة الحاجة خديجة. كنت أرى الابريق الذي غطّى الكلس داخلَه فأحتار ولا أقول لها شيئا. أعرف أنه وسخ لا ينظفّه الماء، لأن الكلس التصق بالزجاج ودخل فيه. افكّر أن الاباريق تفسد من استعمالها، لكنني حين أراها تلتمع في البيوت الأخرى أقول ان بيتنا قد تغطّى كلّه بوسخ لا يمكن

غسله . الشراشف والمخدات البيضاء تبدو ثقيلة فوق الكنبايات والأسرّة كأن غبارا جافا تسرب الى نسيجها وأقام فيه .

في مرات ، حين أقعد على كرسيي في الغروب وتأخذني الشفقة بالحاجة خديجة ، أقول انها هكذا بيوت الكبار، لا تنظف ، وأدير رأسي اليها فأراها قاعدة صامتة على حافّة السرير. أزداد شفقة بها ، فأقوم عن كرسيي وأصير أمشي أمام بابها لتنشطها خطواتي وتشعر بأن أحدا يتحرك في البيت .

أبقيت الأغراض في مواضعها متنقلا بينها كما كانت تفعل هي . حتى أنني رحت أجلي صحني حيث كانت تقف ، في المساحة الضيّقة لصق المصطبة . أضع فيه ماء وأهزّه قليلا ثم أدلق الماء الى أسفل حيث الفسحة الباطونية على حدّ الجل . يتناثر الماء على التراب المجاور وعلى باب الحمام الذي بنيته من قديم . هكذا كانت تفعل الحاجة خديجة التي لم تكن تأبه لرائحة الماء الوسخ يطلع من تحتنا . وأنا رحت أفعل مثلها ، طالما أنني وحدي ، ولا أخجل من وصول الرائحة الى أحد عندي .

لا أدلق ماء نظيفاً على صفحة الباطون الزنخة . كانت تزيل وسخ اولادهم بالرغوة التي تتسرب من فتحة الحمام الصغيرة . رغوة بيضاء سائلة تخرج من الحمام وترسم طريقا ضيّقا هو ذاته في كل مرة . وكانوا يرفعون أصواتهم في الداخل لأنها كانت تغسلهم معا . وحين يخرج واحدُهم عاريا مبلّلا أصرخ فيه ان يذهب ركضا الى الغرفة . كنا مانزال في السبعين حين كانوا يرسلونهم الينا من بيروت . أنيمهم في غرفتي لخوفهم من العتم في غرفة الحاجة خديجة . وحين يفيقون في الصبح يبدأون الضحك من تلقائهم كأنّ أحدا كان يضحكهم في المنام .

ليس الماء الوسخ وحده ، بل بولي أيضا الذي أسيله بعد أن ألصق ساقيَّ بفتحات الدرابزين العريضة ، يسقط مطرطشا وتطلع رائحته في الصباح أكثر

زنَخاً ولا يزيلها ماء الجلي الوسخ الذي ألقه مرتين في النهار.

هم أيضا تركوا الأغراض في مواضعها بعد موت الحاجة خديجة. حتى أنهم لم ينقلوا سريرها الى الغرفة العتيقة التي كانت بيت أبي. أبقوه حيث كان في مكانه تحت صُوَرِ ابنتي وأحفادي الميّتين. وأنا لم أعد أتساءل عن بقائه مجهّزا بفرشته ومخدته وشرشفه ما دام أن أحدا لن ينام فيه. كانوا ينحشرون عائلات كثيرة في غرف الطابق الأعلى الثلاث، وأنا أنام وحدي في المساحة التي ينحشرون في مثلها جميعا. ولا أدعوهم لعلمي أنهم إمّا يخافون من البيت الذي غُسِلَ فيه ميّتون كثيرون، واما يقرفون من آثاري على الأغطية.

وحدي في البيت. وهم يظنون أن سنواتي الكثيرة جعلتني آلف الموت فلا أخافه. أو يظنّون أن سنواتي الكثيرة جعلتني أعرف الموت لكثرة ما أقمت على حافته. تخطر لهم أسماء موتى قديمين أعرفهم ولا يعرفونهم فيظنّون أني أعرف الموت ولا يُفزعني وأني قديم من زمنه القديم. لكنهم في أوقات أخرى لا يصدّقون أنني أئنُّ من وجعي. قال لي أبو فايز ان عليّ أن أتوقف عن الخوف من الموت. قالها متعجّلا متذمّراً كأنه يدفعني الى الكفّ عن نقيقي. أصعد اليهم في المساء وأقعد بينهم كأنني ضيف عندهم. يقولون لي كلاما قليلا حين أصل ينشغلون بعده في ما كانوا يحكونه قبل مجيئي. أقول لكبيرهم، ابني، ناولني الابريق يا ابني، فيقوم من بينهم ويأتيني بالأبريق، أصطفيه من بينهم كأنني أذكّره بوقت كان يعرفني فيه ولا يعرفهم. وهو يعلم ذلك فيقول لي خذ يا أبي، ويظل واقفا أمامي حتى أنتهي من شربي.

يكونون كثيرين في بيتهم، وحين أقوم لأغادره يوصلُني واحدُهم إلى أوّل الدرج ولا يكمل. لم ينم عندي الا صهرهم. دفعوه دفعا الى ذلك كأنهم اغلقوا عليه باب غرفة تسلّل اليها جرذٌ. وقفت قربه وصرت ادله، بعصاي، من أين يأخذ الفرشة واللحاف والمخدّة لشعوري أنه لن ينام على سرير الحاجة خديجة.

يرفعها بيديه محاذرا كما لو أنه لن ينام عليها الليل كله . لم يغيروا شيئا بعد موتها . أعرف أنهم تركوا الأغراض في مواضعها لأنهم يظنّون أن الوقت المتبقيّ لي لا يستأهل ترتيب البيت من جديد . وأنا لا أختلف عنهم في ذلك فأهمل السكّرية التي جفّ السكّر فيها ودَبِقَ وأترك درفَةَ الخزانة مفتوحةً ، ولا أفعل شيئا بالتراب الذي يتساقط من سقف غرفة أبي . أنا الذي كنت استأجر بيوتا في بيروت أقيم فيها كأنني اجرّبها . كنت آخذ البيوت وأتركها لهم قبل أن أعرفها . حتى أنني لم أعد أذكر عدد الغرف في بيت الصنائع الذي تركته لابنتي الصغرى . كنت أصله متأخراً لأنام فيه وأغادره قبل أن يفيقوا . ينتظرونني بقمصانهم القطنية التي تكشف عن أكتافهم وصدورهم . ولا أحكي لهم شيئا عما حدث معي في الخارج . ظللت أراهم صغارا حتى تزوجوا وأولدوا وهم لم يغيّروا شيئا مما كانوا فيه لظنّهم ان لا شيء يؤنسهم الا تذكير بعضهم بعضا بما كانوا عليه وهم صبية صغار.

لم أكن أطيل القعود بينهم . أعرف أنهم أتوا ليضحكوا فأقوم . ابنتي نايفة كانت تنتظر غفوتي لتغلق الباب عليّ وتطيل سهرها معهم . وفي الصبح يجيئون الى الفرن متأخّرين متعبين فأضع ألواح الخبز الثقيلة على رؤوسهم وأضغط عليها بيدي الى اسفل لأجعلهم يستقيمون في وقوفهم . كسالى ، ودماؤهم باردة ، ولا يعرفون إلا أن يسلّموا أمورهم الى رجال غيرهم . لم أكن أتركهم يهدأون في الفرن . أصرخ بواحدهم لمجرد أنني رأيته فتبدأ يداه تتحركان كأنما تبحثان عن شيء تشتغلان فيه . لم أكن أفهم كيف يستطيعون الوقوف ثابتين في أماكنهم بينما النار تهدر قويّةً في بيت النار.

لا يحرّكهم الا صوتي . أصبتُ القطّةَ وهي تعدو من هلع في وسط الجل . دوّت الطلقةُ بينهم فأقامتهم عن كراسيهم . ولم تستطع القطة أن توقف عدوها فراحت تتعثر بأحشائها قبل أن تقع . خلعت الطلقةُ قلبَ فاطمة التي أدارت وجهها الى الناحية الاخرى دون ان تجرؤ على التمتمة مثل أختها الحاجة خديجة .

قلت لها اذهبي اسحبيها من الجل . فنزلت الدرجات الأربع اليه وهي تبعد وجهها وتخفيه لكي لا أرى نظرتها الخائفة الكارهة . كانوا كثيرين على المصطبة أخذوا يتفحَّصون البارودة ويرفعونها الى أكتافهم ويجعلونها تتبع طائرا وهميا يظلون في اثره حتى تتك ابرة الحشوة الفارغة . يملأون البيت والحاجة خديجة تقضي الوقت منتظرة مغادرتهم لتضع الأكل لأولادها على النار. تضع مقلاها العريض قريبا من حافَّة الطاولة فيتناثر زيتُهُ على الأرض والحيطان . لكن البيت كان أنظف مما صار عليه بعد أن بتنا نعيش وحدنا ونطبخ أكلا قليلا . فكرت أن البيت لا يتسخ من العيش فيه ، بل من ابقاء الأشياء في مواضعها ومن بطء ساكنيه وحركتهم القليلة .

ليس أوسخ مما كان قبل أن تموت ، رغم أنني عدت الى التبويل على فسحة الباطون تحت المصطبة . كنت قد توقفت عن ذلك قبل موتها حين بنيت حمّاما آخر اقتطعت مساحته من أرض المطبخ الضيّق الطويل . ألحَّت كثيرا لأبنيه وقالت ان الناس جميعهم صاروا يقيمون مراحيضهم داخل البيوت . جعلته في آخر المطبخ ووضعت له حائطا وبابا ليبدو بعيدا عن البيت ومنفصلا عنه . لكن رائحته ظلت تتسرب الى المطبخ والغرفتين من بعده لأن الطاقة الضيقة لم تكن تكفي لحملها الى الخارج . قلت للحاجة خديجة ان الاكثار من دلق الماء لن ينفع فللمراحيض رائحةٌ تطلع وان لم يتغوَّط فيها الناس ، ورائحة حمام الخارج ستظل تطلع حتى لو توقّفنا عن الخروج اليه .

عدت الى التبويل على فسحة الباطون تحت المصطبة لقرفي انا نفسي من وسخي الذي تيبّس في أرض المرحاض وفي المواضع السفلى من حيطانه . ولمّا نزلت ابنة ابني لتنظّفه لم تخط قدماها عتبة بابه فأخذت تدلق ماء كثيراً من حيث تقف فيما هي تقلب نظرها بين المطبخ وغرفة المونة والدرج المؤدي الى التنخيتة .

أبول واقفا على المصطبة ملصقا فخديّ بالدرابزين الحجري ذي الفراغات

والنقوش. وأفكّر أن علو الدرابزين سيحجب نصفي الأسفل عنهم فلا يرون ما أفعل. وحين أرى أن ذلك لا يحجبني عن انظارهم أروح أتخيّلهم مطلقين ابصارهم نحو الأنحاء البعيدة. أبول عن المصطبة في الليل والنهار، وحين أخطو نحو المساحة القليلة المتقدمة حيث أقف لا أنظر الى حيث المرأة وأولادها في الطابق العالي من بيت أخي، ولا الى المرأة الثانية في الغرفة أول الدار. أخطو الى الأمام دون أن أتلفّت، وألصق فخذيّ في النقش المتشابك وأجعل ظهري مرتدّاً الى الخلف. يصعدون الدرج الى بيتهم في الطابق فوقي ولا ينظرون إليّ قاعدا محدقا فيهم. لا يظهرون الا قليلا اذ يقفلون بابهم فور دخولهم ويقعدون ساكتين في العتمة بينما أنهم تفتح الحنفية لكي لا يندفع الماء قويّاً ويحدث جلبة.

أقضي وقتي على الكرسي محدّقاً في البوابة الكبيرة التي انتظرتهم على قنطرتها بعد أن مات أبي. قال لي رجل من ضيعة قريبة أن لا اطلق النار الا بعد ان يدخلوها ويصيروا في الدار. انتظرتهم أيّاماً على القنطرة ويدي لا تفارق الفرد الذي كان لأبي. وحين ظهروا من مفرق الساحة فرّ أخواي من الجلّ باتجاه البيوت التي في السهل. انتظرتهم حتى تجمعوا أمام الغرفة العتيقة. ولما دفع واحد منهم بابها هامّا بدخولها أطلقت الصيحة القوية عالية. لم أقل شيئا بل كانت صيحة فحسب أداروا وجوههم إليّ على اثرها ورأوا الفرد مصّوباً نحوهم. كنت لم أزل في الرابعة عشرة. ولما أخذت أدور في الضيعة بعد خروجهم شعرت بأنني كبرت سنوات عمّن هم في جيلي. وحين صرت اقعد مع اخوتي أقول لمحمود الذي يكبرني بسنوات هات الماء يامحمود فيقوم يأتيني به. صيّرته رائقا ساكتا في البيت وتعوّد في سرعة على انقلاب المراتب بيننا. أراه مطأطئا رأسه أمامي، وهو أطول مني، فأقول له من آذاك يا محمود فيدير إليّ عينين لا متسائلتين ولا خائفتين. صار هكذا في الخارج أيضا. من آذاك يا محمود، أسأله فينظر الي ولا يجيب.

تخاف مني هي وأولادها. وحين يقطعون الخطوات القليلة الى درج بيتهم

يبقون رؤوسهم منحنية مطرقة الى الارض . يعرفون أنني أفكر بعبورهم تحت بوّابتي فيجتازون العتبة بخطوة وسيعة واحدة . قلت للحاج سليم أن نستبدل القديمة بواحدة جديدة من الحديد فلم يقبل . كان يومها قد ترك فرنه في بيروت ورجع ليعيش في الضيعة . لم يغب إلاّ سنوات قليلة عاد بعدها ليرتّب بيته كما لو أنه قضى في بيروت عمرَهُ كلّه . وضع كنبايات كبيرة في إحدى غرف بيته الثلاث وأقفل بابها . وفي أعلى الدرجات المؤدية الى المصطبة وضع بوّابة واطئة يستطيع من يشاء ان يجتازها بمجرد ان يرفع رجليه قليلا . قلت له نشتري واحدة كبيرة عالية للدار كلها، فلم يقبل، فدفعت ثمنها وحدي . لكنني اخذت أقفلها في الليل وأبقي مفتاحها معي . تقاتلنا مرات كثيرة اذ كان يخبط حديدها بيديه ورجليه حين يرجع من سهرته ويجدها مقفلة . أقول له أن يجعل لبيته بوابة اخرى يقيمها في وسط جلّه فيتّخذ وجهُهُ سحنةَ اللؤم ويصعد الى بيته . أصيح به وأنا في مكاني فيما هو يغلق بابه على نفسه . وحين يرتفع صوتي يشقّ الدرفة ليريني وجهه المكشّر المصفرّ . يقول كلاما لا اسمعه في اندفاعي نحوه راكضا لكي أصل قبل أن يُقفل بابه من جديد . أظلّ حانقاً حتى يطلع الصبح علينا . أسمع حركته في بيته فأقوم إليه من مكاني سابّاً شاتماً وضاربا بمعولي حائط مصطبته الذي قدّمه مترا في أرضي .

لم أبكِ في جنازته . ولم أزره في بيته بعد ان أنهكه المرض إلاّ مرّةً واحدة . ألحّ أولادي عليّ حتى أن ابني أبو فايز أقسم أنه لن يسير في جنازتي ان لم أفعل . كان نائما في سريره ويداه نحيلتان تكاد تنفر عظامهما . قالت له امرأته التي تزوّجها وهو في السبعين أتى أخوك يا حاج ففتح عينيه وأخذ يبحث بهما عني . لم ينظر الى أحد من أولادي الذين كانوا حولي ولا الى امرأته التي انشغلت برفع اللحاف لتغطّي صدرَهُ ورقبتَهُ . بدا كأنه يفكّر في شيء آخر فيما هو ينظر إليّ لكنه لم يبعد عينيه عني ولم يخفض رأسه الى المخدّة الا حين قالت له ان يرتاح . أدار عينيه عنّي

نحوها قبل ان يتحوّل بهما الى السقف . كانتا تملآن مساحة كبيرة من وجهه الذي ابيضَّ ورقَّ لكثرة النوم والمرض . وكلما انتقل بهما الى شيء في الغرفة راح يبدو كأنه يكلم شيئا فيه . قال لي الحاج علي فرحات ان الرجل في ايامه الأخيرة يسترجع هيئته التي كانت له حين ولادته . تلك التي كان عليها أيضا حين وقف أمامي بعينيه المزرقّتين المتورّمتين كأنه يعاقبني على تحوّلي عن مودّته وتصرّفي مثل رجل في البيت . لم يكن قد تجاوز السابعة أو الثامنة فأشفقت عليه ، لا لِبُنْيِه صغيرا بل لضعفه واتّساع ثيابه البالية على جسمه .

اشتريت البوابة من مالي وحدي . كان حديدها مطليّاً باللون الأخضر وفي أعلاها نجمتان نحاسيّتان تلمعان في وجه من يأتي الى الدار من الخارج . أحمل كرسيي وأجلس تحت قنطرتها فأرى الدار كلها من مكاني ، كما أرى الطريق من مفرق الساحة الى مدخل البيت .

وحين تدخل المرأة مع اولادها الذين كانوا ما يزالون قليلين وصغارا أجعلها تتحايل في العبور لكي لا يزعجني شيء يصدر عنها . تدبّر أمرَها وأمرهم في الدخول الذي لا ينتهون من حرجِهِ حتى وصولهم الى بيتهم . يقفلون باب البيت ولا يعودون الى فتحه ولا يقفون على شرفتهم الصغيرة المطلّة على ساحة الدار . وهم يبقون الدرف الخشبية للنافذتين المقابلتين لبيتي مقفلتين على الدوام . تحوّلوا عن النافذتين وعن الشرفة الصغيرة الى الجهة الأخرى من بيتهم . وانا اجد المرأة تزداد غربة وانصرافا كلّما أمعنت في التحدّث مع جاراتها الساكنات خلف الجامع وبمحاذاته . جعلت بيتها متّصلاً بالبيوت التي كنت أحسب أن أهلها ، رغم قربها ، مختلفين عنا . تكلّمهم بصوت أسمعه وأنا قاعد على المصطبة أو تحت قنطرة البوابة . وحين ألمحها اثناء عبوري الطريق الضيّقة أراها ملتصقة بالحافة كأنها لم تغادرها منذ وقت طويل .

جعلتْ قفا البيتِ واجهتَهُ . كأنها قلبته قلبا وحوّلته عن جهته . الحاجة آمنة

زوجة اخي الحاج سليم الأولى كانت لا تستطيب الاقامة الا على زاوية مصطبتي في أسفل الحائط العالي. والمرحومة فاطمة كادت تقع مرّات وهي تحاول النزول عن الربعة العالية الى بيت الحاجة زاهية. تقول لها الحاجة خديجة أن تسلك الدرب المشقوقة فتروح تغمغم كأن أحدا يؤنّبها او يخبرها بأنها تثقل علينا بحياتها معنا في البيت.

أدارت البيت عن جهته لا لتخاطب جاراتها القريبات بل لتجعله متّجها ناحية بيت أهلها الذي لا تراه لارتفاع بيوت كثيرة بينها وبينه. أفكّر أنها تميل بأحفاد الحاج سليم الى عائلتها فأنادي واحدا منهم أراه يدخل البوابة. يقترب إليّ ساكتا مرتبكا فأسأله عن أبيه، وأعطيه ليرة كاملة.

III

لم أغادر البيت منذ سنة . فيه أقضي وقتي متنقّلا بين المطبخ والمصطبة والسرير العالي . منذ سنة كذلك لم أخرج الى الغرفة العتيقة التي أتخيّل أرضها مغطاة بالتراب المتساقط من السقف . لا أخرج اليها لأن ليس لي ما أفعله فيها . خَلَتْ بعدما أخرجوا منها العفش الأخير الذي أسندوه الى حيطانها . حتى الآية التي تغطي الكوّة الفارغة لم تعد في مكانها . ينتظرون أن يهوي سقفُها كلّه وأن تسقط جذوع الأشجار التي تحمله . قلت لأبني قاسم انها ستُسقط غرفا اخرى معها حين تهوي . لم يقل شيئا . غطّاني باللحاف حتى ذقني وقرّب الدفّاية مني . أعرف أنه سيغادر البيت ويبيعه حين أموت . وهو لم يعترض المرأة التي عمّرت طابقا ثانيا لصقنا وقدّمت شرفاته حتى بتنا مكشوفين لها ، كما لم يصلح الشبّاك الذي اهترأ خشبُهُ وتخلّع .

تركوا الغرفة العتيقة خالية فارغة . كانوا قد أخلوها قبل ذلك مرّات لكنهم كانوا دائما يتركون فيها شيئا يدلّ على أنهم سيعودون اليها : برّاداً عتيقا أو سريرا أو طاولة كبيرة لا يتّسع لها بيتهم . أنا نفسي جعلتُها مخزنا لأغراض الفلاحة بعدما ماتت فاطمة . أدخلها بجزمتي الملوّثة بالوحل السميك وأمشي فيها رغم أنني أعرف أن الحاجة خديجة لن تنظفّها . سألني ابن ابني كيف لوّنا أرضها بالاحمر

فقلت له ماذا ستفعلون بها حين أموت . قام عن الكنباية حيث كان جالسا وتقدم نحو الباب . يجعلون من كلامي عن الموت خاتمة الحديث ويتركونني . أظلّ ممدّدا على سريري الذي وضعتُ عليه وسادتين اثنتين لأبقي رأسي مرتفعا عن جسمي . لا أقوم إلا الى المطبخ والمصطبة . وحين ينحشرون في بيتهم بالطابق العالي أحسّ أن بيتي يفيض عني واني أعجز عن جمعه في رأسي . أراه كبيراً متفرّقاً كأن كل غرفة تشدّه الى ناحيتها . لم أعد أفتح غرفة المونة فليس لديّ ما أفعله فيها . ومثلها غرفتا التتخيتة الصغيرتان باتتا فارغتين ايضا . ولم اعد اذكر منذ متى بدأتا تفرغان من الاغراض التي وزّعتها على الرفوف . مرّة رأيت ابن أبو فايز خارجا من البيت وفي يده الفأس ذات النصل الهلالي . سألته الى أين يأخذها ولماذا لم يقل لي . وقف مرتجفا مضطربا أمامي فيما هو يرفعها من خلف ساقه . خذها ، قلت له ، لكن لا تعد الى التتخيتة مرّة ثانية . أغراض كثيرة كانت هناك لم أعد أذكر منها الا مشهدها متجمّعة مصفوفة على الرفوف . يأتون الى البيت كلهم في وقت واحد . وأنا لم أقفل أيا من الابواب التي كانت ، لكثرتها ، تجعل البيت بيوتا متجمعة . يعبرون بين أبوابه وغرفه كما يعبر الهواء فلا اعود قادرا على تمييز داخلهم من خارجهم وأنا قاعد بين اهلهم أولادي ومن معهم من الزائرين . كانت الحاجة خديجة تضع مقلاها قريبا منّا على المصطبة وتشتغل بتكاسل فأحسب أن بطأها لن يطعم احدا من الخلق الكثيرين المالئين البيت ومصطبته . تبدو كأنها تنتظر امرأة تتقدّم نحوها وتأخذ الشغل عنها . وهم يأكلون واقفين حين تبدأ تُخرج من المقلى البيض الذي أنفقت وقتا طويلا في إعداده . لا تعرف كيف تطعمهم . أقول لها أن تُنزل طبسة الزبدة التي على رفّ النملية العالي ، فتتردّد ، من بخلها ، في القيام .

لم تتعلم شيئا في بيتي ، ولم تنس شيئا ايضا . أختها فاطمة كانت تقف خلف زجاج النافذة تنظر الينا ونحن نأكل لأنها تظلّ جائعة . والليرات التي تأخذها من أولادي كانت تنفقها في شراء مجامع الحلاوة التي وجدنا الكثير منها في خزانتها

حين ماتت .

لم يعد مفتوحا من البيت إلاّ الباب الذي بين غرفتي والمصطبة . باب الحمام الخارجي المنفصل مازال مقفلا منذ زمن طويل ولا أفتحه لأنظر الى ما فيه لأنني أعرف أن طبقة كثيفة من الغبار الدبق المتسخ التصقت في أرضه وحيطانه وباتت أعصى على الازالة من الكلس الذي يغطي زجاج الأباريق . لم أعد أدخل ايضا الى غرفة البقرات البعيدة عن البيت . باب واحد فقط . وطريق قصيرة من المطبخ الى السرير فالمصطبة . حين يصير الرجل في مثل عمري لا تقلّ الناس من حوله فقط ، بل تقل المساحة التي يشغلها جسمُهُ . ذهبت مرّتين الى بيت ابنتي نايفة الذي في أول الطريق الموصلة الى بيتي . كنت قبل ذلك أرى رؤوسهم من بوّابة الدار فلا أتبيّنها فأحسب أنّهم ضيوفُهم جالسين مستمتعين بهواء الضيعة النظيف . كانوا لابسين بيجاماتهم حين وصلتُ فقاموا لي . أجلسوني فيما هم لا يكفّون عن مخاطبة بعضهم بعضا . حتى أنهم كانوا يتركونني ويقومون الى آخر الشرفة الطويلة . ولما وقفت لأخرج لم تقترب مني الا ابنتي نايفة . انتظرتني على سفرة الدرج وأنا أنزل متمهّلا في الضوء الخفيف . يعرفون أنني خرجت حانقاً من انشغالهم عني ، غير أنهم لا يكترثون . وأنا عدت الى زيارتهم مرة ثانية ، لكن راضيا بمشاهدة السيارات التي تعبر متمهّلة تحت شرفتهم والناس المتجمعين في الساحة . حتى أنني كنت أحرص على أن لا تفوتني مشاهدة احد من هؤلاء فصرت أمدّ رأسي لأتبين إن كان احد واقفا تحت الشرفة ولم أره .

في بيتي لا أسمع حتى أصواتهم العالية . انشغلت عمّن في البيت بالناس خارجه ، ولمّا هممتُ بأن أقوم لم أجد أحدا منهم حولي . كان البيت قد خلا منهم ما عدا ابنتي نايفة التي خرجت من المطبخ لتقف لي على سفرة الدرج . لم ألتفت نحوها وهي تكلّمني وجعلت أبدو منهمكا بتحسس مواضع قدميّ على الدرجات .

لا أتنقل في بيتي الا بين المطبخ والسرير وحافة المصطبة. حتى غرفة الحاجة خديجة لا أدخل اليها. رغم أنني أرى كل ما فيها من بابها المفتوح الحائط الذي قدّمه الحاج سليم مترا في ارضي لم اعد اراه ايضا، وبتّ أحسب ان غرفة أبي العتيقة باتت أرضا مقفرة خالية تفصل بيني وبين عائلة ابنه. لم يبق لي إلاّ هذه المسافة القليلة أقطعها مرّات كثيرة في النهار. أنا الذي بنيت البيت وأعرف كل حجرة فيه. أنا الذي كنت أنزل حتى الى بئره التي أعرف أرضها وحائطها المستدير. كان الرجال يقفون حول فتحتها ويدلون الحبل المعقود حول وسطي. كنت في السبعين ولا ابحث عن اسباب كثيرة حتى أنزل اليها. في المرّة الأخيرة خفت وأنا في قاعها فرحت أهزّ الحبل وأصرخ لهم لكي يرفعوني فيرتدّ صوتي اليّ مكوّراً مضخّما كأن أفواها كثيرة مختبّأة في شقوق البئر ترده إليّ. يزداد حائطها المستدير ضيقا كلما ارتفع الى الأعلى فيطبق صدري اذ أحسب أن فتحتها أضيق من جسمي. كانت المياه راقدة ميتة حولي. وحين رفعوني الى الأعلى كانت قواي قد خارت ونَفَسي قد ضاق فقعدتُ ألهثُ عند الحافة. حتى أنني شعرت برغبة في النوم بينهم بلباسي المبتلّ وجسمي العاري. ضعفتُ من قلبي لا من جسمي. خفتُ. أنا الذي كنت أقول للحاج حسين صالح القويّ جسمُهُ مثل ثور إنَّ في داخل الاجسام الكبيرة قلوبا صغيرة. عرفت أنه ينبغي لي ان لا أبقى طويلا على حافة البئر، فقمت ضعيفا دائخا غير أنني استطعت الوقوف وسطهم ومشيت متمايلا الى غرفتي.

تعبتُ من قلبي وكدت أنام بينهم على الارض. كنت بلباسي الابيض الذي لا يكاد يصل الى ركبتيّ وجسمي عار من الاعلى. نحيل قاس وفيه قوّة، لكنها قوة ابن سبعين يُعطي جسمُه من عزيمة قلبه. نحيل وقاس وقويّ، والسنوات وزّعت فيه تكوّراتٍ وعقداً عند الكتفين وفي الذراعين وأسفل الصدر، كأن عظامه كثُرت مع كبره. غير أنني رأيت في ذلك قوّةً، كما كنت، قبل ذلك، أرى قوّة في قدميّ

الكبيرتين الزائدتي العظام. أسرع إلى شرط حذائي الجديد بالسكين جهة العظمات النافرة، حتى قبل أن أعرف ان كان سيؤلم قدميّ. ترى الحاجة خديجة العظام في قدميّ ابنتي بهيجة الطفلة فيغتمّ قلبها وتسأل ان كان الاطباء يفيدون في اصلاحهما. وحين كبرتْ أخذت تبالغ في تزيين وجهها فأراها وأقول ان ذلك لم يزدها الا خشونة. ليست جميلة المرأة التي تشبهني. حين التقيت الحاجة خديجة لأوّل مرّة بين ضيعتينا لم أرقق صوتي ولم أغرّب عينيّ بل ظللت واقفا رافعا رأسي ومثبتا قدميّ في الارض. النساء لا يحببن الجمال في الرجال بل القوّة. كنت أسمع جاراتها يشبّهنني بسروة بلا أوراق وهي لا تعلّق بشيء على كلامهنّ. أتت إليّ ماشية حافية من ضيعتها. ولما فتحتُ باب بيتي، عرفت ان وقتا طويلا مضى عليها وهي واقفة أمامه. تركتهم واقفين حول البئر وتوجّهتُ الى غرفتي. عرفت أنني لم افلح في أن أبقي جسمي ناهضا مستويا، ولا في اخفاء الانحناءة التي بدأت فيه. ارتأيت ان استعجل خروجي الى الساحة لأمحو فزعي من رؤوسهم وأنسيهم ما حلّ بي. كانوا متجمعين فيها كأنهم ينتظرونني. لم اجد ما استردّ به وهرتي عليهم إلاّ رفع صوتي فرفعتُه حاكيا لهم ما حلّ بزرعي بعد دخول بقرات لا أعرفها الى حقلي ورفسها فيه.

لكنهم ظلوا صامتين زائغي النظرات، كأنهم يمهلون أنفسهم وقتا لتصديقي. عليّ أن أنزل ثانية الى البئر وأخاطبهم من قاعها. وحين مشيت من بينهم عائدا الى بيتي ادركت أنّ الاولى بي أن اخيفها هي لا هم الذين لا يتحيّنون الا لحظة كالتي شهدوا عليها. ملتُ على حافّتها وأخذتُ أحدّق بحائطها المستدير النازل متّسعا كلما سفِلَ. أطلقتُ صوتا نزل فيها عريضا مضخّما قبل أن يتوزع في جوانبها المعتمة. مضى وقت فحسبتُ ان الصوت تلاشى وتبدّد على صفحة الماء ولكنه لم يسكن الا ليتجمع ويرتدّ إليّ، عريضا مضخما كما نزل. أنا الذي كنتُ أدفع قلبي أمامي ليسبقني الى المجازفة، خطوة او خطوتين فألحق به

مقدّماً يديّ ورأسي ورافعا صوتي وأفعل هذا لا لأخيفهم بل لأشعر بقوتي بينهم . لم يكن قد انقضى وقت طويل على ما جرى لي حين أطبقتُ الباطون على حافتها . أقفلتها كلّها ولم أترك فيها الا ثقبا يمرُّ منه النبريش الى الاعلى ، وثقبا آخر أكبر قليلا ، لينزل منه الماء الى القاع .

لم أعد أتحرّك إلا في المسافة القليلة بين المطبخ والسرير والمصطبة . أقطعها مرّات كثيرة في اليوم مجانبا الأبواب المشقوقة أو المغلقة . قال لي شريكي في الفرن الصغير الذي أخذناه في الأشرفية إنّ علينا أن نوسع بسطته التي لم تكن تتسع الا لشاريين اثنين . فكّر في أن نُرجعَ عارضة الرخام العالية الى الخلف ونقلّل من عرضها . وفكّر أيضا في أن نجعل الواجهة خلف ظهرنا ونعليها من وسط الحائط حتى حدود السقف . احتار كيف يوسع ملكنا الضيق من خوفه فعزمت على ان آخذ حصّته وأفتح الفرن من حائطه الخلفي الى حيث الغرفة المهدّمة الحيطان . لم يكن قد انقضى وقت طويل على أخذي الفرن كله حين توسّعت فيه ، لا الى الغرفة المهدّمة فقط بل الى البورة الصغيرة التي خلفها . أبيعهم الخبز في النهار وأخرج ركامَ الهدم في الليل . زدت على الفرن مساحة اكبر من مساحته . وحين أرى رفوش الشغيلة تنغرس في التراب وتطوّح به أشعر كأنني اشهد تفسيرا لمناماتي التي كانت تأتيني عن ضيق المساحة التي تجعلنا أنا وشريكي نتحرّك متلاصقَيْنِ في مكانينا . أسأله ، في المنام ، عن باب الى يسار بيت النار ، حينا ، وفي حائط الحمام المواجه لبابه حينا آخر فينظر إليّ مدهوشاً ، مثلي ، ولا يجرؤ على فتحه . أفتحه أنا فينفرج عن غرفتين فارغتين متّصلتين فأرد نظري إليه وأقول له انهما لي ما دمتُ من رأى بابيهما وجَسُرَ على فتحهما .

ما كدتُ أنتهي من توسيعه حتى تركته وأخذت فرن ساحة الدباس . كان كبيرا حتى انني كنت لا أعرف أين أجد شغّيلته النائمين فيه . أصرخ بهم وأنا واقف وسطه فيقومون متكاسلين من وراء الألواح وأكياس الطحين . تأخذني بهم

شفقة عابرة كلما أيقظتُهم ورأيتهم يتطلّعون حولهم متبيّنين المكان الذي أفاقوا فيه فأعرف أنهم كانوا يرون الضيعة في مناماتهم. يمر أحدهم من امام الباب تعبا نَعِساً فأصرخ به من مكاني فيندفع جسمه الى الأمام كأن رجلا غليظة رفستهُ على ظهره. ظننت أنهم سيظلّون كما هم في بيروت ما داموا يقضون اوقات العمل غافين وأوقات الراحة مازحين ضاحكين. لكنهم غيّروا عاداتهم بعد أن خرجوا من عندي. تشاركوا على أفران أخذوها في أماكن متفرقة من بيروت. كانوا يبدّلون بعضهم بعضا فيغيّر واحدُهم شريكه من دون ان يكون قد انقضى على شراكتهما وقت طويل. ما كان لأحد رآهم في فرني أن يتصوّرهم أصحاب بيوت وسيارات. صرت حين ألتقيهم أرى وجوههم صفراء هازلة لكثرة ما يشتغلون. صفراء من تلك الصفرة التي يلازمها النعاس والنطق البطيء. كلّما ذهبتُ الى الضيعة وجيء على ذكر واحد منهم أحسب أنهم يتحدثون عن رجل لا أعرفه. حتى أخي الحاج سليم الذي في عمر آبائهم غادر الضيعة في الخمسين ليشتغل مثلهم. كان يهرول في فرنه متعثرا في حركته المتصلة بين شغّيلته وزبائنه. يمسك الأرغفة بيديه الاثنتين كما لو أنها ستبقى طويلا معه. وحين يعدّ النقوديَصْفُنُ مرات، ويخطىء، ثم يُخفض يديه كما لو أنه أنجز عملا كاملا بانتهائه من زبون وانتقاله الى آخر. أشفقت عليه اذ رأيت أنه لا يُحسن الموافقة بين حركة جسمه وعمره. وبدا لي كما لو أنه لا يعرف الوقت الذي يقتضيه تجميع المال فيظنّ أن انهماكه سيجعله غنيّاً في آخر النهار.

لم يخطىء. فلم تمضِ على نزوله الى بيروت سنةٌ حتى صار مثلهم. في تلك الايام كانت تكفي النازل الجديد الى بيروت سنةٌ حتى يصبح في سويّة الذين سبقوه بسنوات. ينزلون من الضيعة ويرجعون إليها وقد تبدلت أحوالهم. بدا لي ان تجميع المال بات سهلا حتى أنهم يحصّلونه من تعب أجسامهم وحدها. صار ذلك سهلا في أيامهم حتى ان واحدهم يقضي الوقت الذي يقضيه في بيروت دون

أن يتغيّر شيء فيه . وأنا ، حين أقعد بينهم ، أروح اكلمهم مثلما كنت افعل قبل ان يغادروا . وهم ظلّوا على حالهم اذ لم يكن يبين عليهم شيء جديد وهم قاعدون في البيوت التي يزورونها . يتكلمون كلامهم اياه ولا تحضرهم الا ذكريات ايامهم الماضية في الضيعة .

أخو الحاجة خديجة كان يبدو كما لو أنه لسواه جمع ما جمع . لم يتغيَّر شيء فيه ، حتى أنه كان يصمت ساعة يأخذون في الكلام على أشغالهم . كأنه اغتنى من مهنة لا يعرفها . أنظر اليه قاعدا مستحيا تطلع من وجهه حركات أخته الحاجة خديجة . اندهش من شبهه بها يزداد كلما نظرت في وجهه حتى أكاد أنتظر قيامه وذهابه مثلها الى المطبخ . أخصّه بالكلام من دونهم فأسأله عن أحواله لكي يرفع رأسه وينظر إليّ بعينيه . لا لأشتاق الى الحاجة خديجة التي أراها كلها حاضرة فيه ، بل لأرى كيف ينقضي الزمان على الميّتين ويظل الذين يشبهونهم يشبهونهم . أقول له ان يبقى فنتغدى معا لكنه يستحي ولا يعرف بماذا يجيب . يخرج معهم دون ان يلتفت اليّ كيلا أكرّر دعوتي فيستحي من جديد .

هكذا كان حين يأتي لزيارتها قبل أن تموت . يقف على مسافة منها ويروح ينظر الى حوض الزريعة في أسفل الدرابزين ولا يتكلّم . يقضي وقتا طويلا واقفا في مكان لا يغيّره ، وهي على بعد خطوات منه . وأختها فاطمة تبدو غريبة منفصلة عنهما بهيئتها التي لا تشبههما . تظلّ في الغرفة العتيقة منشغلة كأنّه لم يأتِ الا لزيارة اختها وحدها . وهو ينسى أن يودّعها حين يغادر فيرجع من منتصف الدار ويقول للحاجة خديجة إنه نسي أن يسلّم على فاطمة . كانت تكبرهما بسنوات كثيرة تجعلني أحسب أنها غير موصولة بتاريخ بيتهم الذي أعرفه . كأنها أتتهم من حياة سابقة عاشتها قبل ان تنضمَّ إليهم .

كنت ادفعها بيدي إلى الجلّ أو الى غرفة البقرات ، وأصرخ بها حين أراها واقفةً مقوَّسة الظهر في وسطه . أظنّها لا تفهم زجري لها وصراخي بها إذ تعود الى الوقوف

كما كانت فور أن يتبدّد صوتي. قبل أن أقف قرب فرشتها لم أكن أعرف أن كرهها لي كان يأخذها فتنسى نفسها وهي مستغرقة فيه. والحاجة خديجة كانت تعرف ذلك لكن لا تقوله كأنه سر من أسرار النساء اللواتي يقضين جميع عمرهن دون أن يُفصحن عما بهن. لم تستغرب عدم مسامحتها إيّاي، وكانت، حين تكلمها، تبدو كما لو أنها تخاطب امرأة عاقلة موجودة فيها. تقول لي أن لا أنهرها كيلا تزعل وتطلق عليها صفات لا أراها فيها. كيف تزعل من كانت هذه وقفتها، ساهية، في طريقي لا تحيد إلاّ حين ادفعها بيدي. لا أعرف الناس اذ آخذهم بهيئاتهم. لا لا افهم كيف كان أبو هاشم ينتظر قدوم اخوته ليذهبوا جميعا لزيارة أمّهم التي كان يتجمّع الأولاد حول نافذتها ليسمعوها تتكلّم وحدها ولينظروا إليها تُعمل يديها في شغل لا يتبيّنونه. يتهيأون للذهاب اليها حتى أنهم ينتظرون من تأخّر منهم على الطريق لكي يدخلوا اليها مجتمعين. كلما مررت في الطريق المحاذية لنافذتها وأسمعها تحكي وحدها في عتمة غرفتها المنخفضة السقف ازداد يقيناباًنها لا تعرف أحدا. أسألها كيف صحّتك يا عفيفة فلا تجيبني ولا تنظر إليّ. يتصل حكيها فيما هي تحرّك يديها كأنها تقيس شيئا لا يستقرّ على طول. أفكّر أن الكبر صعب على النساء فسريعا ما تتغيّر أجسامهن ويبدأن يهزلن وتصبح شفاههنّ رقيقة مطبقة وعيونهنّ باهتة كما لو أنهنّ يتّخذن، مبكرات، ملامح شيخوختهنّ المتشابهة. يمرّ عليهن وقت هرم طويل كأن أرواحهنّ تطلع مبطئة متمهلة في كلّ ما تبقّى لهنّ من السنوات. الحاجة خديجة أسعفها جسمُها الطويل فلم تبكّر الشيخوخة الى ملامحها وحركاتها لكنّها عزفت عن المجامعة وكرهتها. صارت تدسّ إبنَها الأصغر في فراشها حين يغفو وتختلس الذهاب اختلاسا الى النوم. أقول لها سيُفسده أن يكبر على النوم في فراش أمه. صرت أتركها في بيروت حين أجيء لأقضي أياما في الضيعة. وحين أرجع أجد البيت في فوضى من كثرتهم. ابنتي بهيجة منشغلة بنزع حواجبها وطلي وجهها وتبدو في البيت كأنها على أهبة الخروج منه. أمّا اختها التي أصيب رأسها بمرض جعل شعرها خفيفا فكانت

تقضي كل وقتها تشتغل في البيت . في البيت ايضا زوجتا ولديّ الكبيرين ، وأقرباؤنا الذين يأتوننا زائرين ويطول بهم المقام ، والحاجة خديجة بينهم كأنها واحدة منهم . تضيع بينهنّ حتى أنني كنت أظنّ أن امرأة سواها توزّع شغل البيت عليهن وتعيّن للحاجة خديجة الموضع الذي تشتغل فيه . أراها تجول في البيت وعلى رأسها القماط الذي يوحي بانهماكها وبللها بماء الشطف والغسيل . كانت الفوضى تزداد بينهن إلى الحدّ الذي لا يَعُدْنَ فيه قادرات على اخفاء شقاقهنّ حين أكون بينهنّ . تحمل إليّ ابنتي بهيجة أكلي فاستفسرها عن الأصوات العالية التي سمعتها اثناء صعودي الدرج الى البيت . تقف أمامي بزينتها الكاملة فأعرف أنّها أقواهنّ من ابتسامتها التي تستطيع أن تضعها على وجهها ساعة تشاء . أوكلتُ لها أمر إدارة البيت وصرت أعطيها مصروفه . أنا من صيّرها تقف هكذا مثل رجل حين تأتي لزيارتي في بيتي . لا تمكث طويلا . فقط الوقت الذي يتطلّبه إخراج الأكل الذي احضرته لي من الأكياس . تُدنيه مني قبل أن تأخذه لتضعه في الخزانة ، وتنسحب بعد ذلك ، كما كانت تفعل وهي صبيّة تملأ الاصباغُ الكثيرةُ وجهَهَا القويَّ المبتسم .

لا تمكث طويلا عندي . تُبقي أولادها منتظرين في طول المسافة بين مدخل الدار وبيتي . واحد يتكىء على باب السيارة المشرع ، وآخر في وسط الدار يناديها بين الحين والحين بصوت يظنّ أنه يجعله على قدر سمعها هي لكي لا أسمعه أنا . وربما اقترب واحد ثالث من نافذتي ليلوّح لها بيده من وراء الزجاج . لم يعد يأتي أحد من أولادهم أو بناتهم . ابن ابني قاسم الذي كنت آخذه معي كلما ذهبت الى النبطية يمرّ مسرعاً عن نافذتي وبابي وهو في طريقه الى درج بيتهم الذي في الأعلى . وأبوه ينزل بنفسه ليعمل لي شايا في وقت يكون بيته طافحا بالنساء من بناته وزوجات أبنائه . وإذ أراه منحنيا يكنس أرض غرفتي أشعر كأنهم أبعدونا معا عن جمعهم وأنه قضى وقتاً طويلاً ساكتاً قبل أن يقوم وينزل إليّ . يدنو مني ليمرّر

المكنسة تحت سريري فأهمّ بسؤاله عن صحته اذ أراه يلوي جسمه بما لا يتلاءم مع عمره. لكنه لا يكلّمني إلا ليسألني عن أكلي. وأنا أظل ساكتا حتى ينتهي ويقف على الباب هامّا بالصعود، فأقول له شيئا لكي أبقيه مدة أطول عندي.

لا يمكثون الا قليلا. ومن يراهم في الدار داخلين خارجين يظن أنني أقضي نهاري كلّه بينهم. يرون أن الوقت يمرّ ثقيلا وهم عندي. وحين يضعون أقدامهم خارج العتبة تصير حركتهم أبطأ ويصير وقتهم يجري على مهله. المدّة التي تقضيها ابنتي بهيجة واقفة تكلّمهم وهم على شرفتهم في الطابق فوقي تتجاوز مدّة زيارتها لي أضعافا كثيرة. أظل أسمع صوتها تكلمهم حتى بعد أن أفيق من غفوتي القصيرة التي أكون قد رحت فيها اثر ابتدائها الكلام معهم. أما أولادها فلا يعودون يحثونها على العجلة، بل ان الواقف متكئا على باب السيارة المفتوح يتقدّم خطوات نحو أول الدار ويروح يسلّم عليهم وهو واقف غير بعيد عن أمّه.

لا أخرج من غرفتي الى المصطبة الا حين يغادرون الدار ولا يبقى منهم أحدٌ فيه. أراه خاليا منهم فأجلس على كرسيي وأبدأ أصغن في الهدوء الذي خلّفوه وراءهم. يكون الوقت قد بلغ آخر الغروب فلا اعود قادرا على تبيّن البوابة الكبيرة. يخفتُ لغطهُم في الأعلى لدخولهم من الشرفات إلى الغرف التي تزدحم بهم. أسند ذراعي كلّه على حافة الدرابزين الحجري وأقرر أن أبقى وقتا طويلا جالسا في مكاني على الكرسي. شيئا فشيئا أعود لا أسمع لهم صوتا في الأعلى ولا أتبيّن حدود الدرجات الأربع بين الدار وبيتي. لا أغفو على الكرسي، أقول بعد قليل سيخرجون من الغرف الى الشرفات، ويبدأون لغطهم من جديد.

IV

كأنني استعيد ذكريات رجال آخرين. أو كأنه غيري ذلك الولدُ الذي كان يرمي الرعيان الذين تقدمت بقراتهم الى أرض أبي بالحجارة والشتائم. أو كنت مارّاً عابراً، أو قاعدا في الداخل، حين وضع الذي هو أنا قدمَهُ على بلاطة الرخام البيضاء المبريّة عند مدخل الفرن. في مرات أعود اتذكّر مشهدهم واقفين يتكلمون وراء الباب الذي تركوه مفتوحا على جلول عمي الشيخ محمود الصغيرة ذات المربعات الضيّقة. لكنني لا اعرف ان كان ذلك مما حُكي لي أو مما رأيته بعينيّ. يتكلمون لكن بلا أصوات. ولا أرى منهم الا رؤوسَهم وصدورهم المتلاصقة التي تتدافع فيما هي تحاول الوصول الى رجل ربما كان عمي الشيخ محمود نفسه.

أحداث يتساوى فيها ما رأيته وما حكي لي لابتعادي عن أصلها القديم. وحين أرى نفسي ولدا أرمي الأولاد بالحجارة أراني وأنا أتذكر ذلك في فترة لاحقة من عمري. كأنني أتذكّر تذكّري للاشياء لا الأشياء نفسها. تأتيني غائمة كأن غبارا أبيض يغطّيها. ومتقطّعة أيضا، حيث لا دروب للمسافات التي تفصلني عنها. كأنها رقعٌ متباعدة في أديم شاسع. وحين أذهب اليها في تذكّري أشعر أنني في أرض غريبة قديمة فأرتدّ عنها وأقوم عن سريري أو عن كرسيي القريب من درابزين المصطبة. أشاغل نفسي بالتفكير بما لم يصبح ذكريات بعد. بالكلام

الذي قاله لي ابني قاسم قبل مغادرته، أو بضجيج الأولاد الذين لعبوا كثيرا في الدار قبل أن توزّعوا على بيوتهم.

الرجلان من آل المؤذن اللذان كانا قاعدين على حافة الطريق جائعين نحيلين كأنهما مما حُكي لي أيضا. كانت هيئتُهما غريبةً بعينيهما المتسعتين من ضعف وجهيهما الأبلهين المتضورين. كانا ينظران إليّ معا ويحركان أيديهما نحوي فأخاف. كان ذلك مما حكي لي، أو مما رأيت في مناماتي القديمة. أقوم عن سريري مُبعداً اللحاف عني بحركة من يدي سريعة، كأنني أدفع حيوانا صغيرا قفز فجأة الى صدري.

عرفت حين وطئت قدماي الارض أنني لم أكن يقظا لأن صورة الرجلين الجائعين عاودتني. مددت يدي لألتقط عصاي، وقمت. رأيت كرسيي مسندة الى الدرابزين فعرفت أن ابني قاسم قد كنس المصطبة أيضا قبل صعوده. كانوا قاعدين على الشرفة فوقي تصلني أصواتهم التي لا ترتفع فأيقنت أن لا صغار بينهم. يخرجونهم من الدار لكي يخلو البيت لهم. يجلسون وبينهم القهوة التي غلتها زوجة ابني لتطيل وقت جلوسهم ويكثرون من الكلام. القهوة بينهم ايضاً على شرفة ابنتي نايفة. يجلسون هناك ببيجاماتهم هادئين كأن ضجة الساحة تحتهم لا تصلهم. لا أعرف متى يغادرون الى بيروت لأنهم لا يودّعونني. ولا تختلف وجوههم حين يرونني فأستدل منها ان كانوا وصلوا لتوّهم أم أنهم مازالوا على اقامتهم الاولى. تخليت لهم عن بيت بيروت. حين يريدون مني شيئا يجيئون مع اولادهم جميعا كأنما ليُشهدوا بعضهم بعضا على نواياهم. أخرجَ زوجُ ابنتي ورقة التنازل والمحبرة من جيبه فعرفت انهم ينوون انهاء الامر في جلسة واحدة. بَصَمْتُ. تململوا في قعودهم بعد ذلك. اما زوج ابنتي فكاد يخرج من عندي توا إلى بيته وهو يطوي الورقة ويضعها في جيبه. ابنتي نايفة أحضرت وعاء لأزيل بمائه الحبر الذي على ابهامي. كان بيت بيروت عاليا، وفي آخر مرة صعدت اليه قعدت

تعبا على الدرج وذلك قبل طابقين من وصولي. وحين نزلت إليّ ابنتي نايفة لتعينني على الصعود تذكرت كيف كان ولدي قاسم ونايف ينزلان الطوابق الخمسة ركضا ليحملا اختهما المريضة بقلبها. كان يحملانها جالسة على الكرسي وهي قليلة الجسم يكاد شعرها الكثير يميتُ وجهَهَا قبل أوانه. وضعوا لها فرشة في الغرفة الكبيرة المفتوحة على الشرفة لتقضي فيها وقتها الأرِقَّ الطويل. يقولون لها نامي، نامي لكي تصحّي، فتروح تحدّق فيهم بعينيها اللتين تزدادان اتساعا وكبرا كل يوم.

كانت ابنتي نايفة تشغل البيت وحدها في النهار لأنّ زوجها وأولادها لا يرجعون الا في الغروب حين ينتهون من أشغالهم. أقمشة الكنبايات في غرفة الجلوس حيث كنت أقضي وقتي كانت شبيهة بالقماش الذي خاطت به ثيابها. جعلت البيت يشبهها بعدما أبعدت أولادي جميعا عنه. حتى قوائم الكنبايات المستدقّة من الأسفل كانت تشبه أسفل ساقيها الخاليين وحدهما من اللحم. أقضي نهاري وحدي ضجرا لأنها لا تترك مطبخها لتأتي إليّ. أناديها وأقول لها حين تأتي أن تبحث لي عن الاذاعات في الراديو الصغير فتروح تهزّه بيديها كأنها تُنطقه رغما عنه لتعود مسرعة الى المطبخ. أقول لها أن تعيدهُ إليّ بعدما ينفد صبرها القليل. آخذه صاغراً مشوّشاً مطلقاً أصواتا مختلطة ومتقطّعة فأطفئه وأركنه الى جانبي. ولا آكل الا قليلا حين تأتيني بالصينية التي يطلع منها البخار فتحنق اذ ترى أنني لم آكل بالقدر الذي يجعلني شاكرا ممتنا لها. لكنها تدعوني الى ذلك كأنها تجاملني. تقول كلْ يا أبي، كل، لكنني أشد اللحاف الى أعلى جسمي وأستدير الى الجهة الأخرى. أقضي وقتي ضجرا منتظرا في بيروت، ولا أحب البناية الا في اللحظتين اللتين تتلوان نزولي من السيارة ووقوفي محدّقاً في الشرفات.

كنت حين أقمتُ فيها أصعد درجاتِ الطوابق الخمس رافعا صدري ورأسي ولا أسند يدي مرّة الى الدرابزين ولا أتوقّف لأرتاح. وكان الساكنون كثيرين حتى

أنني كنت ألتقيهم صاعدين نازلين فأظن أنهم يقصدون مكانا في الأعلى وينزلون حين ينهون حاجتهم فيه . وعلى النافذة الوسيعة بين الطابقين الثالث والرابع تقف امرأتان تستديران نحوي كلما رأتاني وتهمان بمبازحتي فألقي عليهما نظرة زاجرة وأكمل صعودي . كنت أحسب أن اولادي الذين لم يمضِ وقت طويل على زواجهم ما زالوا صغارا على نساء بيروت اللواتي كن يتوجهن إلي فور دخولهن الى الفرن ولا يطلبن شيئا منهم . أُكمل صعودي الى البيت الذي يظل بابُه مفتوحا على الدوام . كانوا كثيرين في البيت . أتذكّرهم لكن لا أرى الحاجة خديجة بينهم ، اذ تختلط عليّ تلك الصيفية التي قضتها في الضيعة وحدها فأطيل شهورها وأمدّها على نصف اقامتي في بيروت .

أقول لهم أن يرجعوني الى الضيعة فيقولون لي أن انتظر يومين آخرين حتى يأتي يوم عطلتهم . أقول لهم ذلك مدركا انني اتخلّى لهم عن بيتي ما دامت لم تُرحني الاقامة فيه . بصمتُ لهم على الورقة التي أتوا جميعا من أجلها لأنني رأيت أنه لم يعد لي شيء فيه . كنت قد قررت ذلك قبل مجيئهم لكنني حنقت لرؤيتي زوج ابنتي مغتبطا بالورقة طاويا اياها بترتيب بينما عيناه زائغتان تنمّان عن ذهوله عنا كأنه يصافح نفسه في سّر ه . توقفت عن النظر اليه اذ عرفت كيف يبدو لهم وجهي ونظاراتي السميكة وأنا أحدق فيه . لا استطيع ان اختلس النظر اختلاسا ، مثلما يفعلون ، لانني انظر الى الشيء برأسي كله . وبجسمي أيضا . كأنني عندما انصرف الى ما احدق فيه لا اعود أسمع الأصوات التي تطلع من حولي . لقد أخرجَ من البيت جميعَ أولادي الذين كانوا معي . لا بقوّته ، بل بصمته ونظرته الزائغة وانعطافه على نفسه كلما تمكن من شيء كأن يُحصي نقودا كسبها من الجالسين . كنا لا نكف عن الشجار أنا وأبوه الحاج سليم بسبب حائطه الذي قدّمه مترا في ارضي . أضرب الحائط بمعولي من غضب كأنني سأتمكن من هدمه . ويكون هو قاعدا في بيته خائفا مني وهازئا في الوقت نفسه . أزيد من ضرباتي

معولي على حائطه . أورثته بيتي بعدما أخرج أولادي منه واحدا واحدا . بصمتُ له على الورقة فأخذ يشبه أباه بنظرته الذاهلة واضطراب قعوده . وفي زيارتيّ الاثنتين لبيته في الضيعة كان يتركني قاعدا على الكرسي ويقوم مع صهره وأخيه الى طرف الشرفة . لم أخطىء بعدم توريثي البنات أرضا . ما كان ذلك ليعني الا اعطاء ملكي لازواجهن ولأولادهم من بعدهم . قال لي السيد مهدي ان هذا مما لا يوصي به الله ، لكنني أخذت أولادي الذكور الثلاثة ورحت أطوف بهم بين قطع أرضي الموزّعة في انحاء الضيعة وأطرافها . لم أترك لهنّ إلا جلّ البيدر الصغير الذي ظللن يتنازعن عليه الى أن ماتت ابنتي الكبرى . أعرف ، انا الذي عشت هذه السنوات الكثيرة ، أنني لم اخطىء فيما فعلت . يكون أولادهنّ قريبين الينا وهم صغار لكنهم يروحون يتحولون عنا كلّما كبروا . يبتعدون عنا . أولاد ابنتي بهيجة يظلّون في الخارج حين تأتي أمُّهم لزيارتي . وحين أراهم أجدهم نحيلين طويلي الرؤوس كما هم أعمامهم وابناء عائلة أبيهم . لم أورثهن أرضا . فقط جل البيدر الصغير الذي رحن يتنازعن عليه مع أن ثمنه لا يكفي لتغطية المصاريف التي كن سينفقنها في المحكمة فيما لو ذهبن إليها . وحين قال لي السيد مهدي أن أعطيهن ايضا قطعة الارض التي أبقيتها لي أجبته انني تركتها لمستقبلي . ضحك . رأى أنني أستعير الكلام الذي يقوله من هم أصغر سنا مني . كانت الحاجة خديجة مازالت حيّةً لم تمت ، غير أنها كانت تضعف وتزول قوتها دونما مرض . ضحك السيد مهدي مرة اخرى اذ فهم انني أتهيّأ لما يتهيأ له الشبان الصغار . كانت تقضي وقتها نائمة في سريرها وحين تقوم تظل وقتا دائخة تتعثّر في طريقها الى الحمّام . ظننت أنها ستموت فصرت أذهب الى المروانية لابسا حليقا وأزور الناس الذين كنت أعرفهم من قديم . كانت المرأة التي أخذوني اليها أرملة لم تتجاوز الاربعين بكثير . جلستُ وسطهم ببذلتي وطربوشي ورأسي الحليق فبدوت أعلى منهم وهم يكثرون من الكلام ويبقون ظهورهم محنيّة كأنما ليميّزوني من بينهم . كانت رشيقة خفيفة لا تعرف ان كان عليها أن تبقى ساكتة او أن تكثر من الحركة والمشي بيننا . لم تعرف

ماذا تفعل . وحين خرجنا قال لي من كانوا معي انها كانت مضطربة وعلى غير عادتها . أتيتها وحدي في الزيارة الثانية . وقفتُ وقتا منتظرا على الباب حاملا الكيس الذي ملأتْهُ صابونا وعطرا وجوارب مما تلبسه النساء في بيروت . بدا لي بيتها أضيق مما كان في المرة السابقة ، وحين دخلته لم أتردد ولم أتلعثم وتوجّهت لتوي الى حيث كنت قعدت في المرة الماضية . رأيتها أصغر عمرا بثياب البيت التي سوتها على عجل . وأنا الذي نسي كيف يحكي مع النساء رحت أحاول الا ابدو كما أكون امام زوجات أولادي . غيّرت صوتي وهيئتي لأزيل من وجهي الملامح التي أتّخذها مع الرجال . وهي أخذت تسألني ان كنت قد تعبت على الطريق ، وان كنت جائعا لتعمل لي أكلا .

لم أمكث طويلا في بيتها الذي لم أعد الى زيارته مرة ثانية . كانت ، وهي تودّعني ، تحكي على مهل وتحرص على الوقوف بجانبي وهي صامتة . أنا رحت أراها قصيرة بقربي فسررت بعلوي اذ بدت هانئة راضية وهي ترفع رأسها خجلة كلما نظرت اليّ . كانت المرة الاولى التي يرتفع فيها صوت أولادي في وجهي . عرفتُ أن ابني قاسم هيّأ كلماتِهِ من بيروت وظلّ طوال الطريق ساكتا محاورا نفسه كي لا يتبدد غضبُهُ ويطيش . ظلوا واقفين ثلاثتهم لظنهم ان جلوسهم سيمكّنني من أن أشتّ بهم عما جاؤوا من أجله . قالوا كلمات قليلة لكن حازمة أكملوها فوق الحاجة خديجة النائمة في سريرها . ولما خرجوا لم يلتفتوا اليّ . كانت وجوههم غاضبة محتقنة وهم ينزلون الدرجات الأربع الى ساحة الدار . ومن النافذة بدت لي أجسامهم الكبيرة متعبة متهدّلة من الشغل ومن القعود في البيوت . استحيت من الحاجة خديجة ولم أذهب اليها في غرفتها ، لكنني لم أخرج من البيت ايضا . أخذت أمشي بين غرفتي والمطبخ الذي جعلتُ أحدثُ أصواتا فيه كأنني أُنزل أوعيته من أمكنتها . ولما سمعتُ صوتَها آتيةً خرجت لملاقاتها . أجلستُها على كرسي في منتصف المسافة . كانت تلهث ، فيما رأسها الشائب يتلوّى يمينا وشمالا

كما لو أنها تشكو ضجرها من الوجع الذي لا يفارقها . لم تقل شيئا كأنها لم تخرج الا لتُريني نفسها . لم تكن غاضبة بل متوجّعة . ولما أرجعتُها الى سريرها أخذتْ ترتجف من البرد فغطّيتها وقعدتُ الى جانبها حتى نامت .

أعطيتُهم أرضي التي خرَّبها ملكُهُم لها . تركوا شجرها يبس ودروبها تنسدّ بالشوك والهشير العالي . وكلما فكرت فيها أجد أنها انفصلت عن ضيعتنا والتصقت بأرض الضياع الاخرى القريبة منها . كنت أراها ، على تفرقها ، متشابهة وأستطيع أن أميّزها عن الجلول التي تحيط بها وأنا واقف على سطح بيتي ، حتى أنني ، من تلك المسافة ، كنت استطيع أن أرى الخط الدقيق الذي يفصل بين حصتي وحصة أخي محمود .

استعجلت التخلي لهم عن أرضي ، حين قطعت السبعين . أنتظر مجيئهم الى الضيعة وأبقى بينهم الوقت كله وهم واقفون ضجرين ينتظرون انتهاء الطعام حتى ينشغلوا بأكله . صاروا أكثر ضجراً بعدما وزّعت عليهم الأرض. يجلسون مبقين أولادهم الصغار بينهم ويقوم واحدهم الى امرأته ليكلّمها في كل حين كأنما لن يتاح له أن يقضي لياليه كلها في فراشها . ولا يقولون للحاجة خديجة ان تقوم من حول المقلى القريب منها حتى يكاد يحرقها ولا تعرف كيف تديره . تقضي وقتها محدّقة فيه ، وحين يغادرون تقف لهم على حافة المصطبة ضامّة ذراعيها الى بطنها . تودّعهم قبل أن يتاح لها ان تكلمهم . أفكر أن ذلك بسبب مجيئهم معا فأستبقي واحدا منهم بعد خروج اخويه . أقول له ان ينتظر قليلا حتى تبرد الشمس . ينتظر ، لكن عند طرف المصطبة ، من دون أن تفارق عيناه البوابة العالية والسيارات التي تمر مسرعة من آخر الطريق .

تنازلتُ لهم أيضا عن بيتي الذي أقيم فيه . ابني قاسم ترك سقف الغرفة العتيقة يهوي ولم يرفع التراب والحصى عن الأرض ، ولا يدير عينيه الى غرفة البقرات عند نزوله من بيته . يريد أن يبيعه بعد موتي . ينظر الى البيوت التي

عمّروها في طرف الضيعة فيرى بيتنا عتيقا متباعد الغرف ويحسب أن الروث الملتصق بأرض غرفة البقرات يمنعه من ان يُغيِّر وجهة استخدامها. وابني الاصغر لم يكترث بالأرض التي أورثتُهُ إياها. وحين يكلّمونه عنها كلما أتى من بيروت يصير يمزح، كأنما ليفهمني أن ثمنها لا يستحق ان ندير الكلام عليها. حتى أنه لا يذهب ليراها. أفكر أنه أخذ أقلّ من أخويه فأكاد أعده بقطعة الأرض الوحيدة التي أبقيتها لي. حين يزورني واحدهم مرتين لا يفصل بنيهما وقت طويل أقول اني ظلمته بالقسمة التي أجريتها بينهم. يأتيني ابني الاصغر وحده من دون عائلته فيقعد امامي وقتا لا يتكلم. يأتيني بالماء حين أطلبه، ويمسكني بيديه الاثنتين كلما هممت بأن أقوم من السرير. أجده قريبا إلي ونحن وحدنا فأروح اكلمه كما كنت أكلمه في صغره. اعطيتُه الارض التي أبقيتها لي. حتى البنتان تصيران قريبتين لي حين تكثران من زيارتي. تُخرج ابنتي بهيجة الأكل الذي أحضرتْهُ لي من الأكياس وتبقى لترتب الغرفة من حولي فأصير أحكي لها عن أختها. كما أحكي لأختها عنها حين يقف اولادُها منتظرين نافدي الصبر.

لا يلزمني وقتٌ طويل حتى أرضى. ندمت على ما قلته عن ابنتي نايفة لأنني ظننت أنها لن تعود لي زيارتي مرة اخرى. قلت كلاما كثيرا عنها امامهم جميعا ولم أعرف كيف أتوقف. كما لم ينفع قراري بالرجوع الى غرفتي فكنت أعود اليهم بعد أن اكون قد قطعت مسافة باتجاهها. أتذكّر شيئا قبل دخولي فيرتفع غضبي وأستدير لأخرجه بينهم. تهتز عصاي وانا ارتجف من علو صوتي فيصغون لي وقتا ثم ينشغلون عني بالكلام الذي تبدأه واحدة بأن تنظر الى اخرى وتصير تكلّمها. يكون قد انقضى وقت على انشغالهم عني حين أرتدّ حانقا غاضبا نحو غرفتي. المرأة التي في الطابق العالي من بيت اخي الحاج سليم تقف صامتة على شرفتها التي خرجت اليها لتسمع ما أقول. لكنها تسبقني فتحوّل نظرها عني وتميل به الى جهة اخرى. تسبقني لأنه يلزمني أن أقف في مكاني وارفع رأسي كله نحوها

حتى أراها. شتمتُ ابنتي نايفة مرة اخرى بسبب المرأة. واكملت سيري المسرع المهتز، الى الدرجات الاربع التي قطعتها متعجلا أيضاً.

بقين مجتمعات مع رجالهنّ في المساحات الضيّقة التي لم تملأها سياراتهم. أعرف أنهن يتبادلن الكلام عني من فوق سطوح السيارات اذ كن ينتظرن رجوعي الى الداخل حتى يصير الحديث مشتركا بينهن. أكون قد قعدت على كرسيي فيما السيجارة التي اشعلتها ترتجف في يدي. ترك رجالهن الكلام لهن ووقفوا يترددون بين الاستماع والملل فبدوا كأنهم ينتظرون أناسا ينزلون من طوابق البيوت العالية. لا اندم على ما فعلته الا بعد ان اقوم عن كرسيي ويهدأ الضجيج الذي كان يملأ رأسي. يخفّ على مهل قبل ان يتوقف فأقوم الى المغسلة. قلت لابنتي نايفة حين أتت ان تُبقي معها العشرة الاف ليرة التي في رفّ خزانتي العالي. تأخذها، رمغ انها تعرف أنني لن ابقيها معها طويلا فسريعا ما انقلها الى من اكون راضيا عليه منهم. يسألني ابني قاسم مع من العشرة آلاف ليرة فأفكر وقتا قبل ان أجيب. يقول لي أن أشتري بها أكلا فأجيبه بأنني تركتها لميتتي. يغضب، اذ يعرف انني احكي هكذا لأفهمه أنني وحدي ولا أحد يزورني، ولا يقول لي أنني لن أكون حيا حتى أشتري بها أكلا للمعزين أو أدفع للمقرىء أجره في نهاية النهار.

أنقّل العشرة آلاف ليرة بينهم وأنسى مع من أودعتها آخر مرة. أكاد أسأل ابنتي نايفة عنها قبل أن أتذكر أنها مع أختها. جاءتني بها بعد مرور يوم واحد على سؤالي عنها. وضَعتْها في يدي وأنا قاعدٌ على السرير لتفهمني بأنها كانت تسدي لي خدمة باحتفاظها بها. أحتار ماذا أفعل بها حين تكون معي. أعطيتهم بيتي الذي أقيم فيه لأنني لم أعد أعرف ماذا أفعل بما أملك. من يملك شيئا عليه ان يكون قادرا على الخروج من بيته بمفرده، وأنا انتظر أياما حتى يأتي أحد منهم ويأخذني لأقصّ شعري واحلق ذقني. يسألونني لماذا أترك شعري يطول هكذا فأظل ساكتا لا أجيب. وهم لا يعودون الى سؤالي مرة ثانية اذ يعرفون انها المرة التي ينتهي بها

زعلي الى الكلام . أمرّر يدي في لحيتي فأجدها طرية وطويلة . أتسلى بها . غير انني أقف انتظرهم قرب سياراتهم لأرفع صوتي إن سألني أحد منهم لماذا أنا واقف هكذا .

V

أرى المرأة التي في الطابق العالي من بيت أخي الحاج سليم، أما زوجة ابني فلا أراها. تتكلمان ساعات بصوت منخفض لا يسمعه سواهما، رغم طول سطح الغرفة العتيقة الذي يفصل بينهما. لكنني أعرف أنهما تتكلمان عني، اذ تنظر المرأة إليّ وتومىء، أو تبتسم، كما لو أنها توافق على شيء قالته عني زوجةُ ابني. وحين أُخفض رأسي أشعر بهما معا فوقي وأنني على مسافة متساوية منهما، في الاسفل. لا احد غيرنا في الدار. غادرَ رَجُلاهما وخرج أولاد المرأة معا خافضين رؤوسهم من بوابة الدار. ان خبطتُ بالارض رجلي طاردا الذباب عنها تقول المرأةُ خبطَ برجله الارض. يحوّم الذباب قليلا ثم يعود يتجمع بين الاصابع. أرجع قدمي قليلا الى الخلف لكي أجعل المواضع التي يتجمّع فيها الذباب تحت جلد مشايتي. تكون زوجة ابني قاعدة قبالةَ الباب المفتوح على سطح الغرفة العتيقة. تعرف كيف أنا جالس وماذا أفعل، فأرفع رأسي وأُرجع ظهري الى الخلف كما لو أنني أهمّ بأن أنام على الكرسي. أفكر أنهما ستسكتان وتنسياني اذ ان تمدّدي واغماضي لعينيّ سيغيّران حديثهما ويشتتانه، او يجعلان المرأة ترجع الى داخل بيتها.

أراها مازالت في مكانها حين أستوي جالسا بعد وقت قليل. تظن أنني لا

أميّزها اذ ترى مسافة مكبرة خالية بين النظارات وعيني . وأما أنا فأظل وقتا أحدق في موضعها حتى أراها . أجمع شكلها المهتز الغائم في صورة تغيّرها حين أتمكن منها . تدير رأسها الى الجهة الأخرى، كأنها تفكر في شيء يساعدها على جلائه منظر الطريق . تعرف زوجة ابني أنني أنظر الى المرأة . فتنشغل بالثياب التي تطويها، والتي جمعتها بين ساقيها القصيرتين الممدودتين .

لم تعد تنزل الى بيتي . أتاني ابن عمي الحاج يوسف الى فرني في بيروت وقال لي انها أخذت الولدين وذهبت الى أهلها في النبطية . كان ابني قاسم زوجُها لم يتجاوز العشرين، وحين وصل الى الفرن قلت له أن يرسل لها الثلاثة آلاف ليرة مؤخّرها . قام ابن عمي الحاج يوسف من مكانه على الكرسي وقال لي حانقا ان النساء لسن ابقارا حتى يعاملن هكذا . لم أشأ أن اغضبه لأنه كان يقضي ايامه قاعداً متبطلا في بيروت، وحين يأتي إليّ في الفرن لا يعرف كيف يتصرف أمامي فيظن أن المال الذي أكسبه قد غيّرني . سكتُّ له . حتى أنني قلت كلاما ودودا طيّبت به خاطره وهو واقف أمامي بثيابه الفرنجية التي لم يكن قد ألفها بعد . كان ابني قاسم واقفا حائرا بيننا، وعرفت من وجهه الصامت الذاهل انه يضطرب من شهوته اليها فسريعا ما يهتاج الرجال الى نسائهم حين يغادرن . وفي الايام التي تلت صار يترك شغله بداخل الفرن ويأتي يقف غير بعيد مني لأقول له أن يذهب في أثرها الى النبطية . لا يفعل شيئاً سوى أن يقف . حتى أنه لا يقول انه اشتاق الى ولديه . وأنا أجد وجهه غريبا فأحاول أن احدس المواضع التي تثيره فيها فلا أفلح . أجده غريبا عني بشهوته التي كأنه ربّاها في بيوت ناس أخرين . وحين أتى أخوها إليّ تيقنت من أنني لم أكن مخطئا في نظرتي اليها فرحت، فيما هو يكلمني، أنظر الى فمه الأبله الكبير ولا أسمع ما يقول .

لم تعد تنزل الى بيتي . كنت اقول، بعد أن أصبح اولادها كبارا، ينبغي أن أرفع صوتي في وجهها، لكنني كنت أنسى ذلك في غفلة مني . أخطو ثلاث خطوات

أو أربعا باتجاهها كأنني أهمّ بأن ألطمَهَا فتعلي رأسها وتصلّب جسمها متحدية اياي أن أفعل . أستدير متجها الى الدرجات وأنا أهذر بكلام لا استطيع ضبطه . أقول لقاسم ابني إنها أفضل زوجات أولادي وأنها خدمتني في حياتي، فيغيّر الحديث . يعرف أنني سأبدّل كلامي بعد حين، كما أفعل في كلامي عن ابنتيّ حين أرضى عن واحدة، وأُقصي الأخرى لوقت لا يطول حتى أحلّ الاولى محل الثانية .

أرتخي على الكرسي وألوي رأسي الى أسفل لكي أبدو لهما نائما . أعرف أنها تصفُني لزوجة ابني وأنها مستمتعة، في الوقت نفسه، بتخميني أنها تحكي عنّي . أضع ساقا فوق أخرى ظانّا أنني أخفيهما معا فلا تعودان تبدوان طويلتين ممتدتين أمام جسمي الذي قصر من انحناء ظهري وضمور بطني . أبقتهما العظام الزائدة في قدميّ طويلتين قويتين . وحين أنظر اليهما أرى انهما لم تتغيّرا كثيرا . ، أُبقيهما مكشوفتين وأخرج بهما الى المصطبة بلباسي الذي لا يكاد يبلغ ركبتيّ . أفكر انهما لن ترتخيا ان ظلتا مكشوفتين هكذا . لا يشيخ الجسم إلا وقت يكون مخبّأ مختفيا تحت الثياب التي يعتاد عليها حتى يصير يطلب زيادةمنها في كل وقت . ألبس قميصين أو ثلاثة تحت سترة النوم التي أُغلق كلَّ أزرارها . أمد ساقيّ الى الامام وأرى أنهما مازالتا قويتين من عظام قدميّ الزائدة ومن مشيي المسافات الطويلة بين البيت وقطعة الأرض البعيدة التي تركتها لنفسي . كنت أصل بهما منهكتين مرتجفتين لكنني أعرف انني أجمع فيهما قوة للسنين القادمة . أمدهما أمامي في الشمس وأجسّهما بيدي فأجدهما صلبتين قويتي العضل تغلظُ في نهايتها قدماي الكبيرتان . كنت أتعمّد اظهارهما حافيتين أمام الحاجة خديجة بعد أيام من مجيئها الى بيتي لكي لا تظن أننا سنكمل حياتنا بحسب ما تشاؤه رغبتها التي ساقتها اليّ . لم تعرف، في تلك الأيام، كيف عليها ان تكون فصارت تتعثر في تصرفها ولا تعرف أي وجه تتخذ . أتركها وحدها في البيت وأخرج، وحين أعود اليه أحرص

على أن أُبقي هيئتي غريبة مبتعدة. أخلع أمامها مشايتي التي اتخذت شكل قدميّ فتحملها الى حيث يجب أن تكون كأنها تقوم بأي من أشغالها الصغيرة الأخرى.

تقضيان الوقت تتهامسان علي. وفي مرات، حين تجد المرأة شيئا جديدا تحكيه، تتوجه مسرعة الى زوجة ابني متخطّية الحائط المنخفض الذي يسوّر بيتها. تهرول وهي تخبط خبطا من ثقل ردفيها ومؤخرتها فأقول لإبني قاسم حين يأتي انها هي من يجعل التراب يتساقط من سقف الغرفة العتيقة. يجيبني أنني أقول هذا لأنني أكرهها، والا فكيف لا يهوي السقف على الارض حين تسهر عائلته كلها على سطح الغرفة. يقول أيضا انه عليّ أن أترك مَنْ في الدار وشأنهم. وحين يصعد الى بيته أرى المرأة تردّ على تحيته مبتسمة، ثم ضاحكة، فأعرف أنه يقول لها كلاما مازحا عن زوجها النائم في النهار. يمازحها لكي لا يبدو غاضبا من الحديث الذي تبادلتاه هي وزوجته، ولكي يُسِرَّ زوجته ويضحكها. وهذه تعرف، فيما هي ترتب البيت وتنظفه، أنها تنظف طباعه وتروّضها. تضع له الطعام فور وصوله لكي تسكته به وترشوه. وتغلي له قهوة يشربانها معا. بالقهوة يجعلن الرجال يتركون أشغالهم مبكرين، وبها يهيّئنهم لسماع كلامهنّ الذي يجعلهم قاعدين قليلي الحركة خفيضي الصوت. تأتي بالركوة والفناجين لأولادها وزوجاتهم لكي يطيلوا القعود على الكراسي ويستمتعوا بالكلام الذي يحكونه كأنهم يحلّون ضيوفا بعضهم على بعض. ويطلع كلامهم هادئا خفيفا فلا يصلني منه، أنا القاعد تحتهم، الا صوته وصفيره. الحاجة خديجة لم تكن تعرف كيف تُقعدهم معا حين كانوا يقفون متفرقين على المصطبة ومنتظرين الطعام الذي يزيد تعثّرها في قليه من ضجرهم وتفرّقهم. وحين نكون وحدنا تأتيني بالطعام قبل أوانه. صحن واحد ممتلىء بما طبخته، فأقول لها أين البَصَلَة يا حاجة، أين البصلة؟ لا تعرف كيف تُطعم. وحين أنتهي من الأكل أصرخ لها وهي في غرفتها لتأتيني بالماء. قال لي السيد مهدي إنه لم يَرَني بصحبتها في الخارج أبداً. وافقتُه دون أن أتخذ هيئة المتذكّر لأنه

خطر لي أنني لا اعرف كيف يكون شكلُهاوهي تمشي على الطريق. قلت لـه لا في الخارج ولا في الداخل يا سيد مهدي، لكي يفهم أنني لا أقربها في الفراش.

لم أقل ذلك للسيد مهدي وحده بل لكثيرين غيره. سمعت علي هاشم وهـو يقول لأولادي أنني أنام وحدي منذ اكثـر من عشرين سنـة. كـان وجهـه متخـذا سحنة الجد كأنه يحاول أن يقنعهم بشيء. غير أنهم أخذوا يضحكون ويمازحـونـه بكلمات يذكرون فيها ظهرَهُ وعضوَهُ. يضحكهم هذا الكلام حين يتعلق بي لظنهم أنني أتوهّم شهوتي توهما، أو أن الرجال حين يجـاوزون السبعين يصيرون قـادرين على تصريف شهواتهم الخفيفة بالكلام وحده. حين قلت لهم انني انام وحـدي لم أكن أفكر في امرأة، ولم أكن عاقدا العزم على الزواج، بـل كنت أكلّمهم هكـذا، كأنني أهيّئهم لمصادفـة قـد تحـدث فجـأة. لم تعجبني زوجـة اخي الحـاج سليم الثانية، فرغم نظافتها وهدوء كلامها كـان فيهـا شيء يشبـه الخـدم. كـانت، في الصباحات التي تلت زواجها، تُطلع عاليا صوت المزلاج قبل خروجها من الغرفة لتوحي بأن الليل مضى عليهما كما يمضي على زوجين شـابين. أتخيّلـه ممـددا على سريره يتثاءب ويتمطّى فيلتبس عليّ شكله وعمرُه وتختلط في رأسي هيئات كثيرة له أجمّعها من مراحل عمره. وكانت تطلع أصواتا عالية من أوعية المطبخ وهي تعدّ له فطوره. لم تكن تعجبني. قلت ان الحاجة خديجة لن تموت قبل أن اصبح في عمر أستحي من الكلام على الزواج فيه. وحين يخرج ببيجامته الى مصطبـة بيتـه أفكـر أنني أنا من كان يجب ان يتزوج، لأنني أنا من لم يتوقف جسمه وقلبـه عن العنـاد والمشاكسة.

ليست امرأة بعينها بل صور ألبسة وضحكات وأنواع كلام ومآكل أجمّعهـا من نسوة أجدهنّ متشابهات. كنت آخذ كـرسيي الى السـاحـة الصغيرة بين الطـريق ومدخل الـدار وأقعـد بينهن وهن مجتمعـات مـع أزواجهن في الغـروب. يؤجلن الرجوع الى بيوتهن فيقضين اوقاتا طويلـة يتحـادثن وهن واقفـات على المصـاطب

والأدراج الواطئة . أخلط بينهنّ وأنا أنقّل بصري بين واحدة وأخرى . أحتار بينهن، فأعرف أن ما أتوق اليه هو عمرهن ونظافة أجسامهن وثيابهن التي تعطيهن لونا يزول حين يتقدم بهنّ العمر. يَعْرِفنَ انني أحدّق في مواضع متفرقة منهن وانا قاعد على كرسيي فيلتصقن اكثر بحافات المصاطب والحيطان حتى يكدن ينحشرن فيها . ظلّ اخي الحاج سليم يطوف ستة اشهر في الضياع بحثا عن امرأة . وحين جاء بها عرفت أنه لم يكترث بشكلها بل بثيابها الشبيهة بثياب نساء اولاده . انها جميلة من الخلف، كدت اقول له حين سألني . لم يمضِ وقت طويل عليها حتى أصبحت مثل نساء الضياع . يلزمهنّ ان يعشن في بيروت ولا يأتين الى الضيعة الا اسابيع في السنة . انقّل بصري بينهن . وحين يزدحمن في الدار ويكون بينهن غريبات لا أعود أدخل الى غرفتي، بل أظل قاعدا مهتاجا من كثرتهنّ وازدحامهن .

أمد رجليّ أمامي فترى المرأة انهما أطول بكثير من نصف جسمي . كأنني شختُ من الأعلى بينما بقيت رجلاي في عمر الستين . قلت لابني قاسم إنها تخبط برجليها خبطاً على سطح الغرفة العتيقة . فلم يتخيّل تكور ردفيها وصوت الارتطام القوي الذي يشبه سقوط جسم كبير على سطح طيني جاف . كنت أسمع الصوت في قلب السقف حين أراها تركض الى زوجة أبني . ولا يخطر لي ردفاها الصلبان القليلا المرونة فقط بل مؤخرتها الثقيلة التي ترتج كلما نزلت بإحدى قدميها الى الارض . أكرهها كما يقول ابني قاسم . بل أكرههما معا هي وزوجة ابني . فهذه لم أكن أعرف بأي الأوصاف أصفها وانا أشتمها فأروح أقول لها كلاما عن أهلها السذج المهابيل في النبطية . أقول لها ذلك وأقصد أشياء أخرى فيها مثل لون وجهها الأبله . ومثل اسنانها الكبيرة وفمها المفتوح ونظرتها المتسائلة والحاقدة في وقت واحد .

لا نرى في النساء صفات كثيرة مثلما نرى في الرجال . نحبهن أو نكرههن فقط

ولا نقول عنهن مثلما نقول عن رجل إنه مختلف عما يُظهره منه شكله . هنّ مثل أشكالهن ، ولا يستطعن ان يكنّ مختلفات عما يتهيأ لنا منهن . وأرى أن ما يصنع عقولَهُنّ حسنُهُنّ أو قبحهن . تقف زوجة ابني لتدفع عنها شتائمي فأرى ان كلامها يخرج من وجهها ، هكذا ، كما تخرج نظرتها حين تنظر . لا يتغيّر فيها شيء حين تتحول من الصمت الى الكلام . هكذا ، تحكي كأن وجهها يكمل دهشته وهبله . أهزّ عصاي وأرفعها أمامها فتُعلي رأسها وتُسبل يديها وتفتحُ عينيها الى آخر اتساعهما متحدية مواجه . تعرف أنني أهزّ عصاي وأرفع يدي ولكن لا أضرب . كأنني لا أفعل الا الاستعاضة بهما عن صوتي العالي . عن علوه الاقصى اذا أستدير بعد ذلك وأنزل سابا شاتما على الدرجات . لا يقول لي ابني قاسم شيئا حين يأتي ، وأنا اعرف أنه قرّر ان يكون صامتا من لحظة دخوله الى الغرفة . يضع صحن الأكل أمامي ويصبّ لي شايا في الكوب الذي لم يغسله جيدا . أقول له وأنا جالس وراء صحني تعال كل يا ابني فيهمهم بكلمة واحدة ويستعد للصعود الى بيته . أعرف انه سيكون ناسيا في الصباح ، فهو مثلي ، لا يطيق أن يظلّ متّخذاً هيئة العداوة لوقت طويل .

يضع صحن الأكل على طاولتي وهو عابس مقطب فيشكل عليَّ لوهلة ان كنت انا أخطأت في حقه أو هو أخطأ في حقي . يبدو لي ، بعبوسه وتقطيبه ، كأنه يريد مني شيئا لا يجرؤ على طلبه . يظهر لي مرة اخرى في الهيئة التي لم أره فيها الا مرة واحدة : طويلاً أبيض وعيناه كبيرتان وجسمه اكتمل حجما وكبر لكن لم تأته الرجولة بعد . مرّ أمامي وهو داخل الى الفرن فرأيت بياضه مثل بياض الاطفال الصغار الذي يبين في افخاذهم وهم يتعثّرون في مشيهم الأول . طويل وكبير لكنه كأنما نما على الحليب وحده ولا شعر في جسمه ولا رائحة . كانت مرة واحدة لكنها كانت قاطعة فصلت بين طورين من عمره . مرّة واحدة الا انها قوية قوّةً ما زلت أراه فيها كلما أردت ان اشفق عليه . وقف قبالتي صامتا بعد أن وضع أمامي كوب

الشاي الذي لم يغسله جيدا . بدا لي زعلانا وحائرا في ما يفعل بزعله فقلت له تعال كل يا ابني . عَرَف أنني أستعيدُ بذلك العلاقة القديمة بيننا . فهمهم اذ ازدادت حيرته . كأنني أوقعته في شرك من ذلك النوع الذي يسهل الخلاص منه . قلت انه سيخرج من فوره، فخرج . وأنا شعرت بالرضى لأنني عرفت أن ما جرى بيننا هو من الأشياء التي لا يستطيع قولها لزوجته .

طفل طويل كبير، أبيض، وهشّ من الداخل كأن حشوته من جلده وحده ولا أثر فيها للّحم والعظم . وفي مرات كنت أرى نفسي في تلك الهيئة . يخرج مني عمري ذاك وأنا قاعد على كرسيي فأدرك أنني عرفت هذا الشكل من قبلِ أن يمرّ إبني قاسم أمامي وهو داخلٌ الى الفرن . وباستثناء الصورة التي تصوّرتها وأنا في الاربعين لا اتذكر شكلي كله الا وانا في هيئتي تلك . أتذكّر عظام قدميَّ الزائدة، اصابع يديّ، حركة ما لجسمي، وبعض وجهي وهو في المرآة . لا أستطيع أن أرد جسمي الى وقت كان فيه صلبا فتيا . ذلك من أجل أن أُخرج النساء من حكيهن وضحكهن في الدار واجعلَ أبداتَهُنَّ واقفةً منتصبة أمامي . وأنا واقف امامها ايضا، لكن في جسم أستطيع أن أكشفه وأُبيّنه . ليس من أجلهن، بل من أجلي . وإلا كيف استطيع ان أتخيّل جسم امرأة وأتوهّمه ان لم يكن جسمي واقفا قبالته، صلبا فتيّاً مثله .

حين ذهبتُ الى المرأة في المروانية لم أعرف كيف اتكلم لأنني لم اعرف أيّ عمر أتّخذ . وقد زادتني البذلةُ الكحليّةُ حيرةً باضافتها ثقلاً آخر على الأثقال التي تنازعتني . وحين مددتُ يدي بالكيس الذي وضعت فيه عطرا وصابونا وجوارب بدا لي كما لو أنني أُعطي ابنتي بهيجة اغراضا جلبتُها معي من الفرن . حتى أنني ربما قصدتُ ذلك لأنني رأيت أنه لا يجوز للرجل الذي بلغ السبعين ان يُرى مرتبكا ومستحيا مثل الشبانِ الصغار . جلست على المقعد إياه، الذي في الوسط، لكي أظهر قويا متمكّنا من البيوت . وهي ايضا سألتني ان كنتُ جائعا فعرفت

أنها تتصرّف، مثلي، بما يمليه عليه عمرُها، وأنها مثلي لا تعرف أي عمر تتخذ. حين لا نعرف كيف نظهر لمن يروننا لا نعرف كيف نكون. كانت البذلة الكحلية تضيف ثقلا آخر على الاثقال التي تنازعتني. فبين الهيئات المتعددة التي أراني عليها كانت واحدة لجسمي طويلا نحيلا تنبو عنه البذلة التي هي اكثر جِدَّةً منه. أخي الحاج سليم لم يرتبك مثلي حين ذهب مع أولاده ليحضروا زوجته الثانية من ضيعتها. ظل قاعدا على كرسي واطئة في آخر الغرفة بينما تولى أولاده الكلام مع أهل زوجته. قعد منطويا منكمشا على جسمه ينتظر وقت خروجه بها من بينهم. وحين جاؤوا بها الى بيته لم يكن أكثر علوا وهو جالس قربها في واحدة من السيارات التي توقفت دفعة واحدة في مدخل الدار. غنمها الحاج سليم. أفاده صبرُهُ وسكوته وصِغَرُ نفسه الذي لم يزايله وهو يصعد معها الدرجات المؤديّة الى بيتهم. بدا قصيرا بجانبها، لكن متعجلا، وعيناه تنظران في الانحاء محاذرتين كأنه يتّقي بهما أناسا ظَنَّهُم مُتربّصين به ليسلبوا غنيمته.

حين لا نعرف كيف نبدو لمن يروننا لا نعرف كيف نتصرّف او نكون. أقول لأولادي انني أريد خادمة تخدمني لأن لا أحد يطبخ لي أو يغسل لي ثيابي. أقول لهم خادمة لأنني أنا نفسي لم أعد مصدقا لما كنت أهج به عن الزواج. قال لي ابني قاسم في صيف مضى انه لا يجوز أن يعرف بنا الناس. كانت المرأة التي سكنت في البيت خلف نافذتي تمازحني مزاحا فاضحا كلما رأتني أنظر اليها قاعدة على شرفتها. وكان صوتها يطلع عاليا فأهم بأن أصرخ بها فتبذل كلامها ونبرتها وتسألني عن صحتي وعمن أتى إليّ من أولادي. في مرات كانت تخلط المزاح بالجد فأعرف أن أحدا يرانا أو يسمعنا. أزيح عن النافذة، وأغلقها فيما أنا أسمع ضحكا يطلع من مكانين اثنين. حين قال لي ابني قاسم لا يجوز أن يعرف بنا الناس لم أعد الى الوقوف على النافذة. خادمة، قلت لهم، أدفع اجرها من العشرة آلاف ليرة التي معي. ولتكن قبيحة لكن نظيفة، من أجل أن تطعمني ما دام

ليس عندي من يطبخ لي .

تظل تنظر الي فيما هي تحكي مع زوجة ابني القاعدة بمواجهة بابها المفتوح حتى أقوم من مكاني منتفضاً مهتزاً وأبدأ أرفع صوتي في وجهها . تظنّ كلَّ مرة أنها كلمات قليلة أقولها وأتوجّه بعدها الى غرفتي ، لكنني لا أسكت . أطل رافعا صوتي وهازّا عصاي حتى بعد انقضاء وقت طويل على هروبها الى الداخل . لا أعود أستطيع التوقف لتذكري ، وأنا أصيح ، اشياء من وقت مضى ، فيرتفع صوتي لها من جديد . لا أستطيع التوقّف حتى حين أصل الى المدخل الصغير المعتم الذي يفصل بين المطبخ وغرفة المونة ، وحين أرفع اللحاف لكي أغطي به نفسي .

أُعَرِّضُ نفسي لغضب لا يحتمله جسمي . والشيء الذي لا أستطيع ايقافه بعد سكوتي هو هبوب الدم القويّ الذي يهبط من رأسي وصدري ويعود ليرتطم بهما . ولا أعرف أنني أخطأت بلجوئي الى السرير الا بعد انقضاء وقت على اتخاذي وضع النائم فيه . أزداد يقظة حتى أصير أرى اشكالا واضحة لرجال ونساء قريبا من عينيّ المغمضتين أكثر وضوحا وقربا مما أراه بعينيّ ونظّاراتي . رجال ونساء يتبادلون الظهور فلا يلبث أن يرتفع وجه أحدهم أمامي حتى ينخفض . يحكون من دون أصوات ويمدّون قبضاتهم وأذرعهم الى الأمام كأنهم يتوعدونني بعقاب على فِعْلَةٍ يعلمون بها جميعا . ذلك من اليقظة الزائدة وليس من السقوط في النوم . أعرف أنني اخطأت بالمجيء الى السرير ، لكنني أعرف ايضا أنني سأظل ممددا فيه ما دام أنني جئت إليه .

يظلّ الدار ساكنا صامتا لساعة او ساعتين من جراء صوتي العالي . تظل المرأة مُطبقةً بابها ، وزوجة ابني تظل حيث هي في داخل البيت ولا تعود تُرى من الشرفة التي كانت قبالتها . حتى الطريق التي تحاذي الدار من الخلف تصير خالية وصامتة . يخطر لي لوهلة أنه عليّ أنا أن أعيد الحركة التي توقّفت ، فأخرج الى المصطبة من جديد ، لا لأقعد على كرسيي ، بل لأحدث حركة في الدار الصامت المنتظر .

VI

سألني أبني قاسم لماذا لا أخرج من البيت ما دمت قادراً على ذلك. عرفت أنه يفكّر في رجليّ وأنه يريدني أن أقوم بذلك سريعا لأنه أدار جسمه نحو البوابة ورفع رجله الى الاعلى ليقلّل لي من شأن الخطوة الأولى. ظللت قاعدا في مكاني. وأبقيت رأسي مائلا وأنا أنظر في وجهه لأفهمه ان كلماته وحركاته لن تنهضني. حككت رقبتي، وأخذت بعد ذلك أحرّك لساني في فمي كأنني اكتشفت فيه مرضا مفاجئا. سألني ان كنت عطشانا وقرّب الابريقَ مني. لم أشرب. فقط نظرت الى الابريق وهو يقترب، ثم وهو يبتعد الى موضع قريب من موضعه الاول. ظللت قاعدا مميلا رأسي وممسكا بيدي طرف السرير، كأنني نادم على شيء، وعاتب في الوقت نفسه على ناس بينهم ابني. لكنني اعرف انه لا يجوز لي أن أبقى هكذا لوقت طويل، لأن صبره قد ينفد فجأة ويقوم ليصعد الى بيته. يجعلونني أتغيّر أمامهم من حال الى حال آخر لكي لا ينفد صبرهم فيقوموا. قلت لأبني أبو فايز مرَّةً انني لم أنم من الوجع الذي في صدري فرفع صوته عليّ. قال لأنني أُدخِّن وأنا في هذا العمر، فيما هو يمسك علبة التبغ التي بقربي ويدنيها من وجهي. ظللت صامتا أيضاً، ولم أصوّب له أشياء خاطئة كان يقولها عني.

أعرف أنه لا يجوز لي أن أبقى طويلا هكذا، لكنه عاد وسألني مرة اخرى لماذا لا أخرج. الى اين، سألتُهُ، فكرَّر لي ما كان قاله مرارا عن أبو علي عقيل الذي ظلَّ، حتى آخر ايامه، يذهب الى جَلّه ويبيع في دكانه، قلت له إن أبو علي عقيل مات وهو أصغر مني. لم يُجبني أنه عاش مئة وسبع سنوات بل قرَّب إليَّ الصينيّة الصغيرة التي عليها صحن الطعام لكي يصعد بعد ذلك الى بيته. وانا بدأت آكل مُطلِقاً، من فوري، أنفاسي العالية المتلاحقة التي أطلقها مع الطعام.

كانوا يشاهدون محمد حبيب في الساحة مع الرجال فيقولون لي لماذا لا أزوره في بيته. قال لي ابني أبو فايز إنه يطيل عمرَه بقعودِهِ بين الناس. يجلس منحرفا عن دائرتهم وينشغل بالنظر الى المارة فيما هم يتحادثون غير منتبهين الى وجوده بينهم. فكَّرت أن أولادي كانوا يلاحظونه بسبب انفراده وظهوره غريبا نافرا عن القاعدين. في المرات القليلة المتباعدة التي يأتيني فيها الى بيتي أجد أن ليس لديه شيء يقوله لي ما دام انه يغرق في صمت لا ينقطع يجعلني أعرف انه زار بيوتا اخرى كثيرة قبل أن يأتي إليّ. أفكر انه يطوف بين البيوت ليمشي فقط اذ انه لم يكن يفارق بيته قبل ان تموت زوجته. كان يدعوني للدخول وهو واقف تحت قنطرة بيته فأتساءل كيف يُطيق ان يُبقي جسمَهُ جامدا هكذا تحت ثيابه المرتّبة القديمة الزيّ كأنها مما بقي من عادات ناس قديمين. يدعوني للدخول فأظلّ ماشيا مُكملا طريقي اذ أجده تنبلا لم تغيّر السنوات حاله. يقول لي ابني ابو فايز لماذا لا أفعل مثله، فتتراءى لي لَفّتُهُ المروّسة من امام مثل لفّات السلاطين ويدُهُ التي يُبقيها تحت قمطة شرواله. كان أهل الضيعة يعودون من بيروت التي أقاموا فيها أشغالا فيجدونه واقفا في مكانه تحت قنطرة بيته. يقولون له السلام عليكم يا أبو حبيب وينتظرون أن يرد عليهم بطريقةٍ يجعلها شبيهة بطريقة أهلِ العراق.

كنت معهم أضحك عليه وابني يريدني أن اكون مثله. وأنا أعرف انه يقول ذلك لأنه لم يجايله فالرجل لا يظهرُ غريبا مضحكا إلا لمن يدانونه في العمر. لا

يريد مني أن أزورَهُ فقط في بيته بل ان أقضي أوقاتي معه هكذا، كأن الاعمار المتقاربة تكفي وحدها لأن يقضي رجلان وقتَهما معا. في السهرات التي كنّا نقضيها في بيت الحاج علي فرحات كنا نتحدث عن أولادنا الذين في بيروت كأننا نتوافق على ان تزيد الصحبةُ بينهم هناك. أقول لأولادي حين يأتون لزيارتي في العيد أن نذهب كلنا لنعيِّد الحاج علي فرحات وأولاده. أمشي في مقدمتهم على الطريق ويجعلونني أدخلُ قبلهم من أجل أن نظهر مثل عائلة لم يفرّقها كِبرُ الأولاد ابتعادُهم في اشغالهم. خمس دقائق فقط ونخرج، كأن وضع العائلات الذي اتخذناه لا يطيق وقتا أطول، أو كأنه، إن طال، سيمحو مشهدَنا ونحن داخلون معا الى بيتهم. وقت قليل للدخول والخروج فقط. كنا نسهر على ذكر أولادنا الذين في بيروت ولا يقطع الأحاديث عنهم إلا قيامُ الحاج علي فرحات ليعمل شايا وقَوْلي للحاجة خديجة أن تفيق. أقول لها قومي يا حاجة لكي أوقف استرساله في الكلام عن فرنهم ببيروت. نِمْتِ يا حاجة؟ أسألها، فتفتح عينيها فجأة وتنظر بهما إلى ناحيتي كأنها تستعلمني عن شيء رأته اثناء غفوتها. جاريته في الكلام عن الأولاد اذ عرفت أنه لا يحبُّ سوى ذلك. أقول لها قومي يا حاجة لنخرج، غير أننا نعود في اليوم التالي. أسبقها على الطريق وأقول لها أن تلحق بي وإنها تُنْفِقُ وقتا كثيرا في الاعداد للخروج. أتأمّل في ما تفعله فلا أجد بين يديها شيئا. أخرج قبلها ويكون الحاج علي فرحات قد بدأ الحديث عن أولاده حين تصل. يجد في كل كلام نقطة يبدأ بها حديثا جديدا عنهم. يريدني أن أسهر على ذكر أشغال أولادنا وعائلاتهم كما يريدني ابني ابو فايز ان اخرج مع محمد حبيب غير مُتَّفِقَيْن إلا في أعمارنا. كنا نقول له السلام عليكم يا أبو حبيب فيخرجها طويلة مُفخَّمَةً فيما نحن نتوقف عن المشي لنعطيه كل آذاننا.

يحسب أن أعمارنا المتقاربة تكفي وحدها لنجول في ساحات الضيعة مثل رفيقين. يفكر في مايفعل الأولاد المتجايلون حين يقول لي ذلك، اذ يرى أننا مثل

الأولاد نقضي الوقت قاعدين لا نفعل شيئا. وحين يطلع الصبحُ علينا لا نعرف لماذا نقوم فنقعد على الكرسي نفسها التي كنا قاعدين عليها مساء الليلة الفائتة. أُكمِلُ في الصباح سهرة الأمس التي تنتهي حين تسخُنُ الشمسُ في التاسعة. ذلك أوّل نهاري الطويل الذي لا أسلك بحسب أوقاته ما دام أنني أتغدّى قبل أن يحين وقتُ الظهر. لا لأنني جعتُ بل لأعيّن للنهار وسطا. تصير ساخنة حادة في التاسعة، وأنا أقعد غير منتظر شيئا فأراها ثابتة في مكانها لا تسير. مثل دفاية الغاز التي يديرها ابني قاسم باتجاهي لتظل مشتعلة الليل كله. يريدونني أن ألعب أنا ومحمد حبيب. نطوف معا في طرقات الضيعة ونقف بين الخطوات لكي نتحقق من شيء حسبناه أول وهلة شيئا آخر. نحتار فيه أنا ومحمد حبيب، ويكون لكل منا رأي ونتراهنُ فيما نقترب منه ونجد أنه شيء ثالث مختلف عما حسبنا. نلعب في الضيعة، من أجل أن نتغدّى في وقت الغداء لا قبله. كانوا ينادون على أولادهم من الطابق فوقي فتخلو الدار منهم. قلت لقاسم ابني انهم لا يكفون عن التصايح طيلة النهار. أظل قاعدا بينهم لا تفصلني عنهم الا حافّةُ المصطبة التي ترتفع درجات اربعاً عن ساحة الدار. أنا وهم في الأسفل بينما أهلهم في الاعلى يسمعون أصواتهم ضعيفة.

كثيرون في الدار حتى أنني أرى بينهم أولادا لا أعرفهم، كأنهم انبثقوا من الجمع الذي لم يكفّ عن النزول من الطابق العالي. أرى ولدا تختلف سحنته عن سحنتنا فأشير له أن يقترب فيدير ظهره وينتظر أن يأخذه اللعب مني بعد وقت قليل. كثيرون في الدار. أولاد المرأة في الطابق العالي من بيت الحاج سليم يظلّون على حذرهم مني فيتوقف واحدُهُمْ عن لعبِهِ حين يقع نظري عليه وينفصل عن جمعهم خطوةً واحدةً أو خطوتين. أرى في وجهه الناحل المسودّ حقدَ أمّه عليّ اذ لا يبعد عينيه الا بعد ان يتركهما تحملقان وقتا في وجهي. قال لي ابني قاسم لأنني أظل قاعدا على المصطبة أمامهم. كأنه يريدني ان اخبىء نفسي في المساحة المعتمة

بين التنخيتة وغرفة المونة . قلت له انني لا أتكلم عن أولاده بل عن الأولاد الآخرين الذين بينهم من لا أعرفهم .

كثيرون في الدار، ولا يخافني منهم الا أولاد المرأة التي في الطابق العالي من بيت أخي الحاج سليم . ولا أرفع صوتي عليهم الا في العصر حين يكون صبري قد نفد ولا أعود قادرا على احتمال رؤيتهم . يتوقفون عن اللعب للحظات ثم يعودون اليه بعد ان يرمي واحدٌ من أولادنا الطابة لولد آخر واقف قبالته . يريدني ابني ابو فايز ان اخرج ولا يعرف انني أنفقت سنة كاملة في تراجعي من الساحة وراء مدخل السيارات الى البيت . كنت قد بدأت أرسم على وجهي تلك الابتسامة المتسائلة أصاحب بها الكلام الذي يقولونه وأُنَقِّلُ عينيّ بحسب تنقّله بينهم . كأنني أقعد لأتفرج وأسمع فقط بينما هم ينسون أنني بينهم . محمد حبيب يرضى بذلك أما أنا فلا . صرت آتي بكرسيي معي من البيت وأجلس وحدي بعيدا منفردا . في أوّل مدخل السيارات المؤدّي الى الدار لكن المطل على الساحة والدكّان . تحت بيت ابنتي، وعن يميني، في آخر المدخل، بوابةُ دارِنا الكبيرة . أنظر اليهم لكنني أستطيع أيضا أن أرى طريق البلد العريضة والمفرق المؤدي الى الجامع . كما أستطيع أن أدير كرسيي الى ناحية السيارات المتوقفة فلا أعود أراهم . أنفقت سنة كاملة في تراجعي البطيء الى البيت . كلما انقضى وقت أجد أنني أضع كرسيي في مكان أقرب، حتى صرت بعد سنة، لا أزيحها من مكانها على المصطبة . يريدني ابني أبو فايز أن أثِبَ وثبةً واحدة الى بيت محمد حبيب وأقعد معه أحادثه تحت قنطرة بيته حيث كنا نضحك عليه وهو واقف بثيابه المرتبة الكثيرة التلافيف .

نلعب انا ومحمد حبيب تحت قنطرة بيته . نقضي وقتنا معا من أجل أن نميّز الصبحَ من الظهر . ننفصل وقت الغداء لكي يأكل كلّ منّا في بيته . لم أتوقف عن الذهاب الى أرضي من تعب بل من قولهم لي انه لا يليق بي أن أشتغل وأنا في هذا

العمر. كنت قد قطعت الثمانين غير أن رجليّ كانتا ما تزالان قويتين. قتلتُ السلحفاة التي أخافت ابن ابني في الجلّ. هويت عليها بالحجارة حتى تحطم ظهرُها وبان دمُها أحمرَ قانياً كأن لها روحا رقيقة تحت جلدها المتيبّس المتغضّن، قطعت الثمانين غير أنني كنت أُعلي يدي بالحجر حتى يكاد قميصي ينشقّ من موضع إبطي. قالوا انه لا يليق بي أن أشتغل وان الغلة التي اخرج بها قليلة ولا تستأهل ذهابي الى الأرض. وأنا كنت أعرف أنهم لم يقولوا ذلك ليريحوني بل لأخرج من الأرض وأتركها لهم. سريعا ما يأخذون المكان الذي أُخليه. وهم يعرفون حصصهم من الارث ولمن هذه الارض فلا يبالي أحدٌ اذا ما اعطيت غيره. أخرجوني من قطعة الارض التي أبقيتُها لنفسي وانا لم أقل لهم ماذا أفعل بقوّة جسمي وكيف أحبس نفسي في البيت. كان أبو فايز واقفا في مقدمتهم لكي أفهم أنهم قرروا الأمر في ما بينهم قبل مجيئهم إليّ. كانوا يأتون معا كلما أرادوا شيئا لأنه لم يكن قد انقضى وقت طويل على تركي فرن بيروت لهم. كانوا يقفون بين يدي طائعين قبل أن جمع أغراضي القليلة من بسطته. غادرته وأنا لم أزل أكثر فتوّة منهم، ولم أكن أعرف أن من يُطاع بيننا هو مَنْ يقف على بسطته. أسأل عنه وأنا في الضيعة فيروون لي أخبارا قليلة عن اقرباء لنا زاروهم فيه، أو يذكرون أشياء عن أصحاب المحلات المجاورة له، كأن لا شيء يخصني مما يجري مع زبائنه أو يأتي الى جاروره. يروون أخبارا عن زائريه وجيرانه وأنا أكتفي بما يقولون كما كانت تكتفي الحاجة خديجة حين أجيبها بكلمات تفهم منها أن الامر ليس من شأنها. فرن بيروت يُعطي كلمة العائلة لمن يكون فيه وأنا لم أدرك ذلك الا بعد ان اخرجت أغراضي منه وغادرتُ الى الضيعة. تغيّرت هيئاتهم فصاروا يقطّبون أمامي ولا ينزعون عن وجوههم ملامح التعب التي يتقصّدونها تقصّدا. عرفوا انها العلامة التي تميّز من يقول عمن يطيع. أقول لواحدهم لماذا انت مهموم وتعبان هكذا فيزيد من علامات الهمّ والتعب على وجهه. صرتُ لا اراهم الا على سحنهم تلك كأنهم يبدأون في كل مرة ألتقيهم التدرب على رجولتهم أمامي. تبادلنا الأدوار

والسَّحَنَ اثر خروجي من فرن بيروت . صاروا يبدون كأنهم يفكرون في أمور لا اشترك فيها معهم . أمور لا أعرفها تجعل وجوههم خارجة مبتعدة، ومنجذبة انجذابا الى الشغل الذي تركوه وراءهم في بيروت .

يضعون علامات التعب على وجوههم حين يأتون إليّ . ذلك من أجل أن يتم المِلْكُ لهم ولا يُنَازَعُونَ عليه . بعد ان تركت لهم الفرن ذهبت مرات اليه . كنت أبدأ بتفحّص مؤونته وخبزه كأنني أذكرهم بأنهم يديرون شغلا هو لي . أتجوّل بين أنحائه وزواياه وألتقط كِسَراً وأوراقا أضعُها في برميل الزبالة الكبير تحت الدرج الصاعد الى تتخيته . أُلقي نظرات مُتفحِّصَة على بيت النار وأضرب قرميده بعصا راحة الخبيز . أُذكِّرهم أنهم يديرون شغلا هو لي، لا لكي أنقص من سلطتهم على شغيلته بل لأبقي العلاقة القديمة بيني وبينهم كما كانت . أقف وراء جاروره لأبيع الزبائن كما كنت أفعل قبل رحيلي . أسأل واحدا منهم يكون بقربي عن سعر الكعك فيتقدم نحوي ليأخذ مكاني . يلعبون لعبتهم هم ايضا إذ يحاولون افهامي أنّ أشياء كثيرة تغيّرت منذ رحيلي . يأتي زبائن لم أكن قد رأيتهم من قبل فيديرون معهم أحاديث سريعة لا اعرف خلالها أي وضع اتّخذ . أعدُّ النقودَ في رأسي مرات فاتذكّر اخي الحاج سليم كيف كان بطيء الحركة مع زبائنه . وعندما أنزل مرة ثانية الى بيروت أعرف قبل أن أطأ عتبة الفرن أنه يجدر بي أن أجلس على الكرسي القريب من الزاوية ولا أُبارحه . لا بسبب ما حدث لي في زيارتي الماضية فحسب، بل لأنني أحدس من قلة مجانسة ثيابي لجسمي أنني زائر قليل الاقامة . أرتبك في بيروت كأنني لم أسكنها ولم أُقِمْ فيها أفرانا . تصير البذلة التي على جسمي ثقيلة وممتلئة بهواء الضيعة ورائحتها . أجد أن عليّ أوّلا أن أؤلف بين جسمي وثيابي . أجلس ساكتا في الكرسي القريب من الزاوية وأكتفي من داخل الفرن حيث الشغيلة بمجرد النظر . أجلس منتظرا انتهاء أحدهم من الشغل ليركبني سيارته ويأخذني الى بيته . حتى أنني صرت، في أوقات الانتظار الاخيرة، أخرج الى الشارع لأنتظر

قرب السيارة ظانا أنني بذلك استعجل خروج من سيأخذني، ومسلّماً لهم بأنه لم يبق لي من فرني الا الخمسمئة ليرة التي جعلوها مصروفي الشهري آخذها من أرباحه.

يأخذني الى بيته حيث ينام بعد دقائق من وصوله. في البيت الذي تركته لابنتي يتركونني معها وحدي ويذهبون إلى أشغالهم. تكون في المطبخ فأناديها وانتظر وقتا حتى تأتي. أقول لها أن تقلّب لي الاذاعات فيضيق نَفَسُهَا فيما هي تهزّ الراديو الصغير بيديها الاثنتين كأنها تحاول أن تُسقط منه شيئا. جعلت البيت على شاكلتها. وحين يعود زوجها من شغله يجعلني أشعر أني قاعد في سريره وليس في بيتي. يأخذون المكان فور إخلائي له. لم يتركوا لي من بيروت الا سياحتي بين بيوتهم أتنقّل بينها لكي أقعد مع نسائهم وأولادهم. أنزل أدراجا وأصعد أخرى ولا أعرف إن كان ما يسرُّهم خروجي من البيوت أو دخولي اليها. يكون ابني صاعدا خلفي على الدرج وفي الاعلى، عند الباب، أرى زوجته واقفة منتظرة بين أولادها. استقبال لا يدوم طويلا اذ يبدأ الوقت يمر بطيئا فور أن أُعيّن المكان الذي سأحلّ فيه. أجمّع أغراضي حولي على السرير او الكنباية لأنادي عليهن وهن في شغلهن. يبدأ الوقت يمرّ بطيئا من لحظة قعودي وأصير أفكّر بالانتقال الى بيت آخر. لم يبقَ لي من بيروت إلا سياحتي في الطرقات الفاصلة بين بيوتهم والادراج الصاعدة اليها. قال لي السيد مهدي إن من يورث أولاده في حياته لا يعود يُطيق القعودَ بينهم. لم أُطِعْهُ، كنت أتنازل لهم في كل مرة من أجل أن أستعيد، لأسبوع واحد أو أسبوعين، علاقتي القديمة بهم. مشيتُ في وسطهم ورحتُ أطوف بهم بين قطع أرضي الموزّعة في أنحاء الضيعة. كنتُ أرسم لهم الحدودَ التي تفصلُ مُلْكِي عن مُلكِ سواي وأمعن في تعيينها والمسير بمحاذاتها كأنني أطيل الوقت الذي أراهم فيه صامتين. قلت له كيف قضى أبوك أيامه الأخيرة يا سيد مهدي. ضجرا وحيدا، أجابني. وحين سأله عن ذلك قبل سنة من موته أجابه ان كل من مكان

يعرفهم ماتوا . عرفت يومها أن رجال الدين يتخذون أصحابا ورفقاء مثلنا ولا يكتفي واحدُهُمْ بالقعود في بيته منتظرا سائليه . قلت له لماذا لم يتعرّف على غيرهم بعد مماتهم، لأنني كنت لم أزل مالكا للكي وأولادي بين يديّ . قال لي لا تورثهم ففكرت أنه يخشى جحودهم لأنه يسوق الناس جماعة ولا يعير انتباها للاختلافات بينهم . يتكلم عنهم جماعة في مواعظه التي يُلقيها في الحسينيات ويرى أنهم يعيشون عيشا واحدا ويموتون ميتةً واحدة .

أخرجوني من قطعة الارض الوحيدة التي أبقيتُها لنفسي . أتوا إليّ معا وابني الاكبر في مقدّمتهم . لا يليق بهم أن أشتغل وأنا في هذه السن، قال . طلع صوته حازما مؤنّباً فبدا لي أنني كنت أختلس الذهاب اختلاسا الى الارض . هي الوقفةُ نفسها التي وقفوها يوم عرفوا بذهابي الى امرأة المروانية . وهي لهجة أبو فايز نفسها وهو يقول لي أنّ عليّ أن أتوقف عن الخوف من الموت . يجمع تكشيرته كلّها في شفتيه ويستعيرُ لهجة ناس لا أعرفهم لكي يحول سلفا بين نفسه وكلام قد أقوله او نظرة متسائلة قد ارميه بها . اللهجة والوقفةُ ذاتها كأنني لا أفعل الا أخطاء يتساوى اثمها، أو كأنني فعلت فعلة كبيرة لا يذكرونها أمامي بل يعاقبونني عليها كلما خطرت لهم . احترت ماذا افعل بوقتي بعد ان عرفت أنني سأمرض حقا ان عاملت نفسي كما يعامل مريض . آكل اكلا خفيفا مُوَزَّعاً صحّتي على عمر أطول . أضعُ صحن اللبنة التي جعلتها عشائي واوهم نفسي بأنني أؤجل أشياء كانت ستحدث لي . لكن ماذا أفعل بعد عشاء اللبنة؟ وماذا أفعل في اليوم التالي؟ اسبوعان اثنان أعود بعدهما الى نسيان جسمي وحِمْيَتي . أُشعل سيجارة بأصابعي المهتزة ويبدأ الدخان يجري كما في داخون مثقّب مهتريء . أعود اليها بعد انقطاع اسابيع أو أشهر . كنت أرمي العلبة التي لم تكن قد فرغت بعد، وأقول لها اذهبي لشهرين، أو اذهبي لستة أشهر . ذلك أصعب من أن أتركها نهائيا، كان يقول اقرباؤنا في العائلة . غير أنني كنت معروفا بينهم بقوّة ارادتي . ذلك كان يساعدني

على أن أمرّر الوقت خفيفا أو أدفع قلبي أمامي ليسبقني الى ما أنا ذاهب اليه. يسهل عليّ التحكم في تدخيني فسريعا ما يصير الانسان مالكا للصفات التي تعطى له. ظللت أنزل الى البئر حتى عمر السبعين ليس بقوتي وحدها بل لخوفهم من ظلمته وقاعه. كنت أعرف، حين أغطس في مائه، انه الماء الذي اشربه، أما الظلمة فكنت أتدبّر وهلتها بتثبيت قلبي في مكانه. فهمت من خطبة السيد مهدي قولتَهُ عن لسان الرسول إن خفت من شيء فقع فيه، فقلت له حين نزل عن منبر الحسينية والموت يا سيد مهدي، هل نوقع أنفسنا فيه؟ سألته عنه لأنني لم اكن أخاف من شيء سواه. لا الموت كله بل ذلك الذي يأتينا ونحن ممددون على أسِرَّتنا. الموت الحقيقي الذي ماته أهلنا لا ذلك الذي يُحدث صخبا ويسيل دما ويأتينا ونحن واقفون مثل طعنة في خاصرتنا. هذا لا أخافه لانه يحدث وضوء النهار قويٌّ من حولنا وينقضي فور ان تخرّ أجسادنا وتسقط. أقصد يا سيد مهدي الخوف مما يعيشه الميتون في قبورهم ومن الجن والملائكة التي تهوّم فوقهم. أرميها في قاع البئر بالضوء الذي في يدي فيتبدّد وتتلاشى ويرجع الماء أنسيًا حين تُزاح عنه عتمته. أسبح فيه ولا أخاف الأصوات الراكدة التي تطلع من فضفضة جسمي له بينما يكونون خائفين مضطربين في الأعلى.

أخافُ الموت الذي يدعوني ابني أبو فايز الى أن لا أخافه، فمن يكون مثلي في الرابعة والتسعين لا يعود معرَّضاً لأن يموت من صخبه ونزف دمه. لا اخطار محدقة ولا اعداء أتوهّمهم وأنا في هذه المساحة الضيّقة بين المطبخ والسرير والمصطبة. أخرجوني من أرضي ولم أقل لهم ماذا أفعل بخوفي فهذه من الاشياء التي لا تقال ولن تجد عند ابني أبو فايز، ان قلتها، الا صدى مزدريا يضعه في تكشيرته التي يجمعها كلها بين شفتيه وأسنانه. سيُفهمني أنه قد تحقق ظنّه بأني أخاف من الموت. قال لي اننا سنموت كلنا، وانه هو نفسه سيموت، فبقيت صامتا ممددا على سريري. يريدني أن أستسلم لموتي وأقبل به لمجرد أنه سيحدث

ولا مفر منه . يختار وقتا أكون فيه مريضا ليشرح لي كم هو هيّن الموت ، كأنه يأخذني من يدي ويجر جسمي المريض اليه . يظن أنه يساعدني اذ يفكر أن ما يحول بيني وبين موتي خوفي وعنادي وحدهما . أقول له أن يأتيني بالطبيب من النبطية فيجيبني بأن لدى الاطباء شغلا غيري . أتساءل بيني وبين نفسي ان كان حقا لا يخاف من الموت . أقصد من موته هو وليس الموت الذي يتحدث عنه والذي لا يعرف من أوصافه إلا طلوع الارواح من الاجسام . يرفع يده ضاماً اصابعها من وسط صدره الى أعلى رأسه ظانا أنه يشرح لي كيف انها تطلع سهلة خفيفة هكذا . . كأنني لست أباه .

حين يشتد عليّ مرضي يقف بين عوادي ويروح يحكي لهم ما جرى لي ليل البارحة ، من دون ان يتحقق ان كنت غافيا أو سامعا . يقول لهم ماذا فعلت ومن أين توجعت بصوت لا يحرص على خفضه . أكون أسمع . وفي مرات أُطلق أَنَّةً أو أفتح عينيّ فأتميّزه من بينهم . يقول لهم فتح عينيه ، ويتقدم نحوي . يُعلي اللحاف حتى ذقني وينتظر فوقي وقتا قليلا يعود بعده الى الكلام بينهم . يظن أن مرضي أخذَني كلّي وأن روحي أصبحت قليلة من جرّائه ، ولم أعد قادراً على ادراك ما يصل الى أذنيّ . كأنني لست أباه ، اذ يتكلم عن افعالي وأوجاعي كما لو كنت آلة معطلة ، ويومىء برأسه نحوي حين يدفعه الكلام الى أن يشير إليّ . إيماءة سريعة الى الاعلى تعني أنني النائم هناك . كأنه يدفعني بها أنا وسريري مسافة اضافية الى الخلف لكي يزيد من تنصّله مني وابتعاده عني . أحرّك لساني في فمي فيصل صوت الجفاف من حلقي الى أسماعهم . أعرف أنهم توجهوا كلهم بأنظارهم إليّ اذ يتوقف الكلام بينهم للحظة . واقفون كلهم . ذلك يعني أنهم يرون ان حالتي تزداد سوءاً وأن موتي وشيك وهم ينظرون الي في كل وقت لكي يتبيّنوه .

كان مرضا لا نزعا .

أقوم منه واهنا شاحبا لكن عارفا انني برئت من رغبتي بالقيام من السرير .

يكون ذلك في الصبح لأنني نمت وقتا طويلا من الليل. أقوم الى كرسيّي على االمصطبة دائخا زائغ البصر غير أنني أصل. ستنام زوجة ابني ساعتين اضافيّتين حين تعرف أنني نجوت هذه المرة ايضا. ستقول لأولادها حانقةً إنها ستموت قبلي وإن عزرائيل لا يقدر عليّ. تزولُ الدوخة من رأسي بعد دقائق من جلوسي فأرفعُ يدي الى الشَّعر الذي طال في ذقني وأتذكَّر الطريق الى الحلاّق في النبطية. أرفع الثانية لأضعها على حافة المصطبة. أمدّها الى الامام، لكي يروها ان كانوا أفاقوا فيرسلوا إبني ليعمل لي شايا.

VII

قال لي ابني قاسم إنني أوقظهم جميعا بصوت القرآن العالي الذ ي أُطلعه منذ الفجر. كانوا يتململون في أسرتهم ولا يستطيعون صمَّ آذانهم عن الصوت الذي يصعد اليهم من الاسفل. ولم يُجْدِهِمْ أن يخبّئوا رؤوسهم تحت المخدات، ولا الحاحهم على النوم ليبقى في اجسامهم. كان ذلك ما بقي لي من ذكر الله فلقد كنت انقطعت عن الصلاة منذ سنتين أو ثلاث. أما الصومُ فلم يسبق لي أن أكملت فيه شهرا. لا من جوع بل من ضجر، فأنا لم أكن أطيق أن أقعد منتظرا شيئا أو أحدا. أقول لها قومي هاتِ الأكلَ يا حاجة. فتقف وقتا مترددة في مكانها قبل أن تستدير لترجع الى حيث كانت في المطبخ.

كنتُ أرفع صوتَ الراديو إلى أقصاه وأخرج به من الغرفة لأضعهُ على حافة المصطبة. هكذا كنتُ أفعل في صلاتي اذ أسجد في وسط الغرفة وأبدأ الصلاة بصوت عال أنسى معه الحاجة خديجة الساجدة أمامي في غرفتها. كانت تطيل القعود على مصلّيتها فأحسب أن ذلك من بطئها في ترداد الآيات. بطيئة في صلاتها كما هي في شغلها. أكون قد انتهيت من ارتداء ثيابي جميعها وهي لم تزل على قعودها. أخطو أمامها لكي ألوح لها فتتخذ هيئةَ الخشوع والتفكّر، كأنها تتملى من معاني الكلمات التي أعرف أنها لا تفهمها. تقرأ القرآن لكن لا تفهم

معانيه . حين اشتريت الآية الكبيرة قلت لها اقرأيها يا حاجة . حـدّقَتْ فيهـا وقتـا مثلمـا يفعل أولاد المدرسة وقالت إنا فتحنا لك فتحا مبينا . سألتها ماذا تعني انـا فتحنا لك فتحا مبينا ، فأجابت بأن الله فتح بابا بائنا للرسول . قلت لمـاذا هي آيـة اذن؟ تقرأ القرآن ولا تفهم معانيه . وهي تكون على مصلّيتها وتـروح تتلـو كلـمات الآيات على مهلها حتى لتقف بين الكلمة والكلمة . تظن أن هذا من فرط الايمان . حين اراها تبالـغ كثيرا أقـول لهـا أين وضعتِ الكلسـات . . أين وضعتِهَا؟ متَنَقِّلُ رأسها بين اليمين واليسار قبل أن تقوم متباطئةً متذمّرة الى الخزانة .

كانت هي أيضا تقول لي أنني أُطلع صوت الراديو عاليا اذ كـانت تقـوى بهم حين يأتون الى الصيفية . تصعد الـدرج اليهم فـور أن تشعـر أنهم أفـاقـوا وتقضي الصبح كله عندهم . أناديها من الأسفـل مـرتين أو ثـلاثـا حتى تسمعني . وحين تظهر أمامي وهي تنزل الدرجات أرفع صوتي عليها ، ليسمعـوه وهم قـاعـدون في الاعلى ، فيمدّون رؤوسهم من الشرفة ليشاهدوا ماذا سأفعل . أرفـع صـوتي عليهـا فقط . لا خيفة منهم بل من سكوتها الذي يربكني كلـما هممت أن أرفـع يـدي في وجهها . كأنها تحتمي بتقوى أبيها الذي مضى وقت طويل على موته . تبدو كأنهـا مقيمة قسرا في بيتي وتجعلني أفكر أنها ساكتة لأنها تقابِلُ بين عيشها في بيت أبيهـا وعيشها عندي . لا أرفع يدي في وجهها ، فسريعا ما تكشف عن وجه غريب فيها لم تستطع السنوات الكثيرة التي قضتها في بيتي أن تبعدَهُ وتزيلَهُ .

أُعلي صـوت الـراديـو لأوقظهم أيضـا . لأجعلهم يتململـون في أسرتهم وهم يحرصون على أن لا يرفعوا أصوات تذمرهم لئلا أسمعها في الأسفل . ذلك مـا بقي لي من سطوتي على الدار . أُعلي صوت الراديو الى اقصاه لأمتحن سطـوتي اذ أكـون منتظرا ، في كل مرة ، أن يرفع أحد صـوتـه علي . انتظـرَ ابني انتهـائي من الأكـل ليفاتحني بالامر . أجبته إن هذا كلام الله فليسمعوه . لم يعجبه مـا قلت ، ونظـر اليّ نظرة دعاني بها لأن نتفق على أنني لست من النساك المتعبّدين . لا أنا ولا هو . فهو

يكاد يصل الى عمر الستين ولم ينتظم في صلاته بعد. يأتيه الايمان هبّات قوية ثم تزول، كما يحدث لي في تركي التدخين. يطلع صوته عاليا قويا على المصلية كأنه يكفّر عن الاوقات الماضية التي انشغل فيها عن ايمانه. لا أنا ولا أحد من أولادي. لا استطيع أنا، ولا يستطيع أحد من الناس، تخيّل ابني الاكبر واقفا خاشِعا بين يدي ربّه. كأن لهجَتهُ والتكشيرةَ التي بين شفتيه وأسنانه أعدّتاه لغير ذلك. كنتُ آخذهم الى الأفران وهم بعد صغار فلا يتسنّى لهم أن يتعلّموا من أقوال المشايخ وأخبارهم. قلت إما ان يتعوّدوا على الشغل واما ان يقضوا حياتهم متفذلكين متبطّلين. في البيت الذي أخذته بالنبطية كنت أقول لها اقرئي لهم من القرآن، فلا تفعل. كأنها لم تتعلمه الا لتجيب بالايجاب حين تسأل إن كانت تعلمته. تفتحه وتقرأ آية أو آيتين ثم تروح تحدّق بالذين حولها كأنها تنتظر أن يقولوا لها اقرئي في صفحة اخرى. يطلع صوتها غريبا كأنها تقلّد أصوات رجال من ضياع اخرى. أصير أمتحنها معهم وأقول لها اقرئي لهم لكي أتحقق ان كانت تبدو غريبة هي كما هو غريب صوتها. كان أبوها من فرط تقواه كأنه اطلع روحه بمشيئته. وضع يده على بطنه وقال لها صرتِ هنا، ثم أعلى يده لكي يأخذها الى صدره. وقال لها أحسنتِ أحسنتِ. كان قاعدا على فراشه مسندا ظهره الى الحائط. سألتُهُ بماذا توصيني يا عمي. فقال بالبنتين لأن الصبي سيعرف كيف يتدبر أمره. اطلعي اطلعي يا مباركة، أخذ يقول لها لكي يخرجها من صدره الذي استعصت فيه. والبيت، سألته، فلم يجبني. اذن فالارض، لمن الارض؟ لم يكن ينظر ليّ ولا الى أحد من القاعدين حوله. كان وجهه يزداد تورّدا كأنه يجمّلُ صورتَهُ الاخيرة التي سيموت عليها. في حياته أيضاً كان قليل الاكثرات بملكه يبيع منه كما لو أنه لن يخسر شيئاً بفقده. وبيت الكوثرية ماذا نفعل به؟ كان مغتبطا لتمكنه من أجَلِهِ. قال لها اذهبي يا مباركة، ولَفَظَها من فمه كأنها نفثةُ هواء صغيرة. خرجتُ الى حيث كانت الحاجة خديجة قاعدة منتظرة مع النسوة. كانت قاعدة وسطهن مائلة برأسها ومغمضة عينيها كأنها تحصي ذكريات تخطر من أمامها.

كنت أعلي صوت الراديو لئلا اقصاه لاخرجهم من فرشهم وأسِرَّتهم لان أصواتهم ظلت تصلني حتى منتصف الليل. أترك النور مضاء لعلمي انني لن أغفو ما دامت اصواتهم تطلع عالية حادة، شاتمة أحدا مروا في السهرة على ذكره. أقوم من سريري الى قضاء حاجات يزيد أرقي من الحاحها عليّ. تخفت أصواتهم وقتا ثم تعود تعلو من جديد. أفكر أنها أتتهم بركوة القهوة للمرة الرابعة. تخرج بها من المطبخ الى الشرفة مسرعة لتطيل سهرتهم ساعة اخرى. لم اقل له اذن فليُخفضوا أصواتهم في الليل فهو لن يصدق أنها تؤرقني. يحسب ان سمعي ضعيف مثل بصري. ويحسب ايضا انهما يزدادان ضعفا كل يوم حتى انني اراه يحدِّق بي حين رجوعه من شغله كأنه يتحقق كم نقص مني. يزيدون عمري سنوات في الأشهر، وهم يعاملونني بحسب كِبَري الذي استعجلوه فلا يصدِّق أحدهُمْ انني على حالي بين زيارتين متتاليتين له. يظنون أنهم يكسبون عليّ جولات فلا يعودون الى سابق معاملتهم لي بعد أن أشفى من مرضي. لهجة أبو فايز التي كان يرميني بها وأنا أئن على سريري لا يغيّرها قعودي على المصطبة بعد شفائي. كأنها جولة كسبها عليّ. ينتظر أن أطلب شيئا او أشكو من شيء ليهيء له تكشيرة وجهه. أما ابني قاسم فيظل يأتيني بطعام المرضى الذي يعافونه ولا يطيقون أكله. أقول له اني شفيت فيحتار ماذا يفعل بالصحن الصغير الذي في يده. يفكرون أن هذا ليس شفاء بل نجاة من نزع. يتوقف الرجال عن المجيء الى بيتي فور قيامي من السرير وخروجي الى المصطبة. يحتاجون الى مناسبة أقوى من المرض حتى يتجمّعوا في الغرفة حول أحد من أبنائي ويتخذوا سِحَنَ السكوت والتأسّف. لم يأتوا لعيادتي في مرضي بل ليكونوا حول أولادي ولا يتركوهم وحدهم في الغرفة مع الموت.

يكسبون جولة المرض عليّ، ويرون أنني لم أعد أهلا للرحمة التي كنت سأجزى بها لو مت. كأنني، بشفائي، أتيتهم خلسة، كخصم يأتي من الخلف. يحسبون

أني نجوت باحتياطي وفكري اللذين لا يتفقان مع التسليم الذي يجب ان يكون عليه من هم في سني. يريدونني ان اصل بمرضي الى موتي لكي لا أخيّب لهم مشاعر الرأفة التي أولوني اياها وأنا ممدّدٌ على سريري. كأنني استدرجتهم الى كمين ونجحت في أن أوقعهم فيه. وأنا أعرف انه يجب عليّ أن أبدو كما لو أنني ضحيّةٌ لمرضي وشفائي على السواء. يقول لي ابني قاسم هل يؤلمك شيء فأعرف ان علي ان أُصدر صوتا أفهمهم به أنني أتألم، لكنه ألم هيّنٌ يجدر بهم أن لا يقلقوا منه. أشير الى الكنباية ثم الى ابني ابو فايز كأنني أعتذر عن إنشغاله بي. وأقول لابني قاسم أقعد، فيما أنا أرسم علامات تعبهم على وجهي.

لم أُخفض صوت الراديو فقط بل اسكتُّهُ. كان ذلك ما بقي لي من ذكر الله أعوّل عليه في توبتي. كنت أقول للحاجة خديجة عما أتوب وأنا لم أقتل احدا. تسكت. لا تجد شيئا تقوله في جملة سريعة واحدة. تكون تفكّر في اختها فاطمة التي لم تسامحني وفي كرهي لأخي الحاج سليم وقلّة اكتراثي بالدين. كما تفكّر في اشياء اخرى منها ازهاقي لأرواح القطط وتعليقي الآية على حائط الغرفة العتيقة لأُخفي الفجوة التي خبّأت فيها سلاحًا. حتى انها ترى أنه يجب أن أُكفّر عن صوتي العالي وعن ارغامي جسمي على أن يظل قويا فتيا وعن نزولي الى البئر وأنا في السبعين. لا تجد شيئا واحدا تقوله لأنها ترى كفرا في كل ما يختلف عن قضاء الحياة بانتظار الموت وارتعاد الفرائص خوفا من الآخرة. كنت أرفع صوت الراديو الى أقصاه وأظلّ يقظا منتبها الى من في الدار حولي. أسمعه ولا اخفض له رأسي ولا أحني ظهري ولا أبدو مسلّماً جسمي للملائكة كما كانت تفعل المرحومة فاطمة وهي تتوضّأ في الفجر. قالت لي الحاجة خديجة انني أغسل يديّ اثناء وضوئي كأنني أُشمّر عنهما لمقاتلة أحد. هذا ما كانت تراه يستحق توبةً وليس أفعالي التي لا تعرف ما الذي تضعه منها في المقام الأول. أظلّ واقفا منتصبا على المصليّة وصوت صلاتي العالي يخيفها كما لو أنني أطلقه لأبثّ الذعر في قلبها. هكذا

جسمي وصوتي، وكذلك قلبي مثلهما. أعلي صوت القرآن كل يوم كأنني انتظر أن تأتيني التوبةُ من طول الاستماع. أعليه الى اقصاه لكي يسمعوه في الاعلى. أوزّع منه عليهم مثل غنيٍّ يوزّع خبزا. أقول هذا كلامُ الله فليستمعوه، فيما أنا أدير الراديو الى الجهة التي يطلع صوته فيها أعلى ما يكون.

لا أفعل شيئا من أجل توبتي التي تتطلب وقتا لم أعد أملكه. كأن أوانها قد مرَّ وانقضى دون أن أتحيَّنَهُ. أصبح وراثي. لا لأنني لم أعد الى ذكر الله بل لأنني لم أعد قادرا على ازالة الوسخ عن جسمي. من يُقفل بابَ حمّامه على وسخه ويُسقط بوله في الكيلة قبل أن يرميه تحت مصطبته لا يعود قادرا على أن يبدأ في شيء. سيقول أولادي إن ذلك من خرفي، أما أنا فأعرف أنني هكذا لأنني لم أعرف أحدا وصل الى هذا العمر. كانوا يحنون أجسامهم ويحيدون بها لكي يضعوها على سكّةٍ. قال ابو الحاجة خديجة لروحه اطلعي اطلعي يا مباركة كأنه يعرف الى اين تذهب. والحاجة خديجة ماتت وعيناها مغمضتان كأن روحها الخفيفة لا تُثقل عليها. قلت لأبني أبو فايز ساخطا نافد الصبر لعنَ الله هذا العمر ما أطوله. هكذا، كأنني أجازف بخروجه أو بدفعه الى الصمت الذي هو أكثر ايذاء من تشكيرته وانتهاره. وقع ذلك غريبا في أذنه حتى أنني ظننت أنه أشفق عليّ لتحوله الى الظن، في لحظة، أنني أقاسي عمري الذي يتقطّع، وأن مرضي ينال مني ويؤلمني. لعنت عمري مُسقطاً يديّ الاثنتين الى الأسفل كأنني ادفع بهما شيئا نحو الارض. كرّرت حركة يديّ مرة ثانية لأفهمه بأنها لا تطلع من الأعلى بل تسقط هكذا مثل الغائط. لم يقل شيئا. بدا له انني قد ضقت ذرعا بوجعي وبسوء معاملتهم لي. وقف وقتا كأنه ينظر إلى شيء وراء الباب قبل أن يتقدّم نحوي ويسألني عن مواضع ألمي. حين قلت لزوجة ابني ان عزرائيل لا يقدر عليّ كنت كأنني أزيح نفسي عن عمري وأسلم أمري لمشاكستي وعنادي وحدهما. هذا وحده يستحق توبةً، كانت قالت الحاجة خديجة لو أنها سمعت ما أقول.

وضعوا أجسامهم على سكة لكي يسلّموا أنفسهم لمشيئة تـرأف بهم، أمـا أنـا فقد تركني الله أتدبر أمـري بنفسي. كنت وحـدي أمشي على المصطبـة الطـويلـة كأنني أدفع الناس عنها بقدمي. يفرّون مثل طيور تطيّرها خطـواتي. تقفـلُ المـرأة بابها ونوافذها لكي تزيد من المسافة التي تفصلها وأولادها عني. والمـرأة الاخـرى التي أجّرها أخي الحاج سليم الغرفـة المنفـردة لم أرهـا تضحك مـرة. أقصيهم الى بيوتهم لأمدَّ سطوتي على الدار كله. لا أُبقي لهم الا المساحات التي يغلقون عليهـا الابواب. يقطعون الخطوات اليهـا من البـوابـة الكبيرة خـافضين رؤوسهم كـأنهم يتجنّبون خطرا قد تُوقِفُهم نظراتُهم فيه.

أسكتُ صوت الراديو وأنتظر طلـوع الصبـح متنقـلا بين السـريـر والمصطبـة والمغسلة التي في آخرها. تهبّ علي نسمةُ هـواء سـاخنـة فـأتسـاءل من أين أتت السخونة في الفجر. أقوم الى سريري أنام عليه وأتغطّى بلحافه. أتّخذ وضع النـائم من فوري وأبدأ بإماتـة يقظتي الـزائدة بجعـل الأجسـام التي تخطـر لي أكثـر خِفَّةً بإجراء الكلام من أحد الوجوه دون توقف. أهبط في النوم كأنني ارمي بنفسي اليـه من مكان عال. تنزلني الوجوه الى اسفل مسافات قليلة أتوقف في نهايتها فجأة اذ تصير الملامح مخيفة في لحظة. تصير لها أشكال غريبة كلما اقتربت بي مما أتوهّم أنه قاع. أفتح عينيّ لأزيـح مـا علق منهـا بي فـأرى أنني يقـظ شـديـد اليقظـة وأن الخيالات كـانت تعبث بي من دون أن تضعني على طـريق النـوم. أرمي اللحـاف عنّي، وأرفع رأسي وظهري عن السرير كما لو أنني أستجيب، متأخرا، لمبـاغتـة لم تخفني. أعود الى حيث كنت على المصطبة. أقعـد على كـرسيي ثم تعبر كتلـة من هواء ساخن فأجد ذلك مُدفئاً. يكون الضوء قد بدأ يطلع، خفيفـا، لكن كـافيـا لجعلي أطمئنّ إلى أن السـخونة تهبُّ من وقدٍ ما، بعيـدٍ، ولا تطلـع من تلقـائهـا، هكذا، كأنها حُمّى في جسم مريض.

VIII

قال لي بعد ان نزل راكضا على درجهم انني عشت عمري وعمر غيري وانني يجب ان اموت. كان صوته اعلى من صوتي الذي انهكه صراخي على الاولاد منذ الظهر. واخذ يرفع يده ويُخفضها فيما هو يصرخ كانه يهوي بقبضتها عليّ. قال لي ايضا ان عليّ ان اريح الناس مني. كانت تفصل بيننا الدرجات التي يعتليها. وعلى شرفتهم كانت أمه واقفه بينهم. صامتة متطلعة، كأنها تدعوه الى ان يزيد من غضبه وصخب صوته. المرأة التي في الطابق العالي من بيت أخي الحاج سليم خرجت ايضا. أما الاولاد الذين نزلت اليهم في الدار فابتعدوا باتجاه الاحواض، لكي يتمكنوا من رؤيتنا معا، ولكي يستطيعوا ايضا ان يهربوا، خلسة، وقت يبدأ بالحدوث شيء يخافونه.

أسكَتَني، وأوقفني حائرا ذاهلا، وحدي، في الساحة التي اخلاها الاولاد والمكشوفة كلها لشرفاتهم العالية. كأنني أنتظر انتهاءه من صياحه لأدير ظهري وأرجع الى غرفتي. ظل يرفع يده ويُخفضها من دون أن يقترب مني خطوة واحدة، وأنا، منذ أن سكتّ، لم أعد أسمع من كلامه الا النعوت التي يطلقها عليّ. كان يطلقها بقوة ويعيد قول ما يعجبه منها مرة أو مرتين. يخرجني بها عن ذهولي وسرحاني بين الشرفات المملؤة ناسا. واقف كأنني أنتظر انتهاء كلامه حتى أدير

ظهري وأرجع الى غرفتي .

هذا الذي كنت أعطيه مئة ليرة لكي يقبل أن يقص شعره، حتى انني كنت أطبخ له الأكلات التي كانت تُنفق الحاجة خديجة يومين في اعداد احداها . كنت أخطو من فوق الفرشة التي وضعتُها له قريبا من سريري، فيفيق . أقول له ماذا تأكل اليوم، فيسمّي، فيما هو يتمطّى على فرشته، أكلاتٍ صعبةً ويضحك ليوحي بأننا سنفشل معا في ان نطبخ شيئا نأكله . يقول لي إنزلْ يا جدّي، حان دوري . فأنزل، وأدني له الحمارة من حجر عال حتى يصعد . لا يعود يسألني ان كانت الكوثريّة بعيدة حين يكون على ظهرها . أسير وراءه جارّاً البقرة بيديّ . كان يضحك من سعادته كلما تجرّأ عليّ بالمزاح . وأنا أرى الكلام يخرج خفيفا من فمه ولا يبقى منه شيء في قلبه . حتى انني تركته يشاهد الثور وهو يعلو بقرتنا ويشبيها لظني ان ضحكاته ستُزيل من المشهد عيبه ونجاسته . قضيت وقت وقوفي محدقا فيه وهو يزيد من صياحه علي . أخذوه الى صفّهم باللغط الذي يديرونه عليّ وبالدسيسة التي يُعدّون لها ركاوي القهوة . حين أجبته على صياحه كان لا يشتغل بي الا صوتي العالي الذي حرصت أن أجعله موازيا لصوته . ألفظ كلمات من فمي بينما عقلي وقلبي متسائلان محايدان شأن من يقع في قتال مع شخص لا يكرهه . أسكتَني . وظللت واقفا في الساحة التي أخلاها الأولاد أحدق فيه ولا أعرف ماذا أقول . كانوا واقفين على الشرفة الطويلة لا يُسكتونه او يبعثون أحداً اليه كأنهم يعرفون سلفا انه لن يزيد عن حدّ العداوة الذي يشاؤونه . استدار وصعد قبلي الى البيت، ساكتا، متمهلا من أجل أن يستقبلوه مرحّبين مهنئين عند آخر الدرجات .

كانوا كثيرين في الاعلى هم وضيوفهم الذين جاؤوا بهم من بيروت . كثيرون، حتى ان سيّاراتهم لم تعد تفسح للعابرين الآتين الى البوابة الكبيرة . قلتُ لأصغرهم أحمد أن يلعب بالورق هو وأصحابه بعيدا عن نافذتي فاستعدّ لأن يبقى في مكانه .

يكسبون عليّ جولات لا يعودون في نهايتها الى سابق معاملتهم لي. صرخت على أحمد صرخة واحدة عدت بعدها الى سريري. كانت أصواتهم تأتي من مواضع في الدار لم يكونوا يصلونها قبلا. أقاموا حتى في غرفة البقرات الوسخة ووضعوا الكرسي على منعطفات الدرج الضيّقة. أظلُّ يقظا حين يكونون كثيرين هكذا، وأبدو كما لو أنني ولدٌ يسيء التصرف امام ضيوف حلوا على أهله. أقضي نهارا طويلا مرهقا أتعقّب جلبتهم من الاسفل واصطدم بها حين أرى احدا في طريقي. صار احمد يضرب الطاولة بعظم يده وهو يرمي الورق كأنه يُسمعني صوت نزقه وعناده. وحين يكّلمون بعضهم بعضا بين الشرفة والدار تطلع أصواتهم عالية كأنهم يحذّرون شخصا ثالثا من التجرؤ عليهم. كان الدار يغلي غليانا من كثرتهم التي يشعرون انها قد تؤخذ من احد اطرافها. يقف واحد منهم على الشرفة في كل حين ويستطلع المدخل والبوابة ويلقي نظرة متحدّية الى الاسفل حيث حدود مصطبتي ودرجي. مُستنفرون مستعدّون للعداوة التي يحسبون أنها من انواع الحفاوة التي تُبذل للضيوف. حتى أنهم قاتلوا، لارضاء ضيوفهم، أولاد الضيعة الذين كانوا يُشعلون مفرقعاتهم على طريق الجامع خلف بيتهم. طلعت أصواتهم قويّة زاعقة كأنهم يقاتلون فيهم رجالا، وكادوا ينزلون اليهم حفاة من حائط بيتهم العالي. لا يعودون يختلفون بعضهم عن بعض حين يكونون معا. كان من أهانني يمر مسرعا من تحت نافذتي لكي لا أراه. لكن حين أناديه وهو على أول الدرجات يرجع إليّ خافضا رأسه ويقول لي انه حسبني نائما. دقيقتان فقط ويذهب. غير انه يقضيها مجاملا سائلا عن صحتي. أضحك له لكي أُدنيه وأُطيل قعوده وأقول له تعال أقعد قريبا مني على السرير. وحين يقوم يَعِدُني بأن يرجع. دقيقتان فقط، لكنني استفرده فيها وأردُّه صغيرا كما كان. يتغيَّر واحدهم حين يكون بمفرده عندي كأنه، حين يتنصل مني بعد ذلك أو يرفع صوته عليّ، لا يفعل ذلك الا من أجل ارضائهم. قال لي وهو واقف على درج بيتهم انني أزعجهم جميعا وإنني لا اترك أحدا وشأنه. كأنهم أرسلوه ليتكلّم نيابة

عنهم. يكسبون عليّ جولات لا يعودون بعدها الى سابق معاملتهم لي. حتى أنهم يستعجلون الاعداد لجولة ثانية ويظنون انهم بذلك يسرعون في انجاز شيء. سلّمت لهم حين رفع ابنهم الاكبر صوته علي. وضعت يدي على قلبي وجعلت أطلق أنّات التوجُّع والاختناق وأتمايل كأنني سأهوي في مكاني. لم يكن ذلك افتعالا كله، كنت أئنُّ واتمايل في يسر وصوتي وجسمي يطيعانني كما لو أنهما يجاريانني بقيامهما بما أشاؤه. ترتفع يدي الى صدري كأنها تتقي وجعا حقيقيا وتطلُعُ الأنّاتُ من تلقائها. حتى انني لم أعد أعرف ان كنت سأستطيع ان أوقف ما بدأته، وخفت أن أهوي الى الارض حقيقة، فربما هكذا تبدأ النوبات التي توقفُ القلوبَ. جعلت أنادي أبي بصوتي المتوجِّع. أقول يا أبي وأغمض عينيَّ في وجهي الذي يقلّص أنفه وخدَّيه كأنَّ حشرجة حارقة وصلت اليه من جوفي. سمعت أحمد الصغير يقول لهم أنني افعل هكذا لكي أخيفهم. كان أخوه الأكبر قد توقف عن الصياح وبدأ ينظر إليّ ليتبين ان كانت أتتني النوبة حقا. كان يعلو وجهَهُ بياضٌ متردِّدٌ لحيرته وتوزّعه بين تصديقي وتكذيبي. وحين أطلقت الأنّة الكبيرة اندفع نحوي مادّاً يديه لتمسكا بي. قالوا له من الأعلى ان يحملني الى سريري غير انه لم يعرف كيف يرفعني. كان يظنّ أن كلَّ شيء فيَّ يؤلمني. نزل أخوته راكضين على الدرج وتبعهم آخرون لا ليمسكوا بي بل ليتّخذوا مواضع يتمكنون فيها من رؤية وجهي الذي كنت أديره من جهة الى اخرى. اخذني أحدُهُم من أخيه الذي كان يحيطني وابتدأ آخران بتدليك يديّ وقلبي بقوة جعلتني أقف ثانية على قدميّ وأرفع رأسي ناظرا في من حولي كأنني عدت من غيبة لا أعرف كم طالت.

كانوا كثيرين في الأعلى. أفسحوا لهم ليدخلوني بوقوفهم على جانبي الشرفة واخذوا يحدِّقون بي ليتبينوا ان كانت النوبة قد أتتني حقا. يُحَدِّقون بي بعيون متفحِّصة شكّاكة كأنها أيد تجس جسمي وتفتّش في ثيابي. تقدَّموا بي مسرعين الى

آخر الشرفة وتداولوا في أيّ الكراسي يلائمني. تركوني واقفا مستندا على عصاي محاذرا ان انظر الى شخص بعينه. وبعدما أحضروا لي كرسيّاً كبيرا استمهلني أكبرهم الذي رفع صوته عليّ وهو يفكُّ أزرار قميصي ويُعيد ادخالها في العرى بالترتيب الصحيح. كان يسوّيها بيدين مرفقتين متمهلتين كأنه يعلّم احدا كيف تكون الأيدي وهي تُدخل الأزرار. أحمد، الصغير بينهم، كان موقنا من أنني لا اشكو من شيء فكان ينظر حواليه مبتسما ويقوم بما يطلبونه منه بتردد معابث. قعدوا حولي على الكراسي وأخذوا يمدُّون أعناقهم إليّ لكي يصيروا اكثر قربا مني. ظللت صامتا بينهم. حسبتُ أن أي كلام قد أقوله سيشي بي ويفرّقهم من حولي. لكنني كنت أطلق انفاسا عالية وأسارعها حين يصمتون كأن نوبات صغيرة تداهمني فجأة وتنفكّ عني حين تنزل أنفاسي عن ذروتها وتعود الى وتيرتها السابقة من جديد. حرّكت لساني في فمي أيضا ليطلع صوتُ الجفاف. جاؤوني بكوب ماء لظنّهم انني لن أقوى على حمل الابريق بيدي المرتجفتين. أدناها الكبير الذي رفع صوته عليّ من فمي. وضعها في مقدمة أصابعه التي جعلها ممتدَّة مستقيمة ليوحي لي بِصِغَرِ الكبّاية ونظافة مائه. جعل يديه رشيقتين متمهلتين راجيا الا تؤذيان ضعفي وهشاشتي. حتى أنه قشّر لي بهما اجاصة وقسّمها قطعا صغيرة وضعها في صحن أمامي. كانت تنزلق بين أصابعه وهو لا يكف عن المحاولة التي تعفيه من التكلم معي. لم تخرج امهم من المطبخ والغرفة التي في جواره. فكّرت أنها تقول لكل من النسوة اللواتي يدخلن ليكلمنها انني أضحك عليهم جميعا وهم يصدّقون. قال لي الكبير بينهم كلْ يا جدّي، كُلّ، وقرّب صحن الاجاص مني فأريته يديَّ المرتجفتين.. كان قد قسمها قطعا صغيرة لعلّها تمرُّ على قلبي قبل أن تصل الى معدتي. قدّم أصابعه إلى فمي ولقّمني القطعة الاولى. جعلت أبدو متألّماً وأنا أزدردها، غير أنني أقبلت على القطعة الثانية أيضا. حتى أنني صرت أقرّبُ رأسي وافتح فمي مسبقا للقطع التي تلت لأفهمه أن الاجاص أفادني.

كنت أهمُّ بأن أقوم فيقعدونني. قمتُ بعد الاجاص لأفهمهم انني غريب بينهم وانه عليَّ أن أنزل الى بيتي بعد أن انشغلوا عني بالتحدث الى ضيوفهم. كان الكبير لا يجد صعوبة في اقناعي بالجلوس. يقول لي أقعد. ثم يعود الى محادثتهم بعد جلوسي. أو يذهب الى أمِّه التي تقول له بأن يدعني أخرج. التفتُّ الى أحمد وسألته من أين هم الضيوف فأجابني أنهم جيران أخيه. كانت المرأتان مُلْصِقَتَيْنِ ظهريهما بالحائط ولم تعودا تنظران إليَّ منذ أن تحققتا من قدرتي على الأكل. كانت تحدقان في اشياء تقلّبانها بين أيديهما وتدنيانها من وجهيهما كما لو أنها ثياب ترتقانها. تحكي التي الى جهتي كلما كلَّمها أحدٌ، وتضحك اثر ذلك كأنها افلحت في فكِّ أحجية سهلة. وهم يضحكون لها كلما تكلَّمت او ضحكت. يجيبن الضياع ويأتين اليها من بيروت. يقلن من أجل الهواء النظيف الذي يجدنه مساويا للبيض الطازج. يأخذن أنفاسا عميقة حين ينزلن من السيارات فيتوهَّمُ من معهنّ أنهن يجدن للهواء رائحة وطعما وانهن قادرات على التمييز بين أنواعه. يكلِّمها الكبير القاعد الى جانبي ليجعل الآخرين يضحكون من كلامها. وهي تجاريه في ذلك اذ تسكت فجأة وتروح تحدِّق في يديها متهيِّئة للسؤال الجديد. سألتُ أحمد إن كانوا مسلمين فلم يجبني. كان موقنا من انني لا اشكو من شيء وانني اصطنعت النوبة اصطناعا. وأنا رحت أكلمه من دونهم لعلمي أنني لا أجازف بانكشاف امري معه. اخذت عيناه تبرقان من توجَّس إذ أحسَّ انني استدرجه الى التواطؤ معي. قلت له، وهو الصغير بينهم، يحسن بي أن أقوم يا جدِّي. وبذلت محاولتين اثنتين للتحرك عن الكرسي فلم أفلح. قال لي الكبير أقعد يا جدِّي فيما هو يقف ليأخذ بيدي. ظللت واقفا وقتا مستمهلا نفسي لتزول الدوخة من رأسي. لم تخرج أمُّهم من مطبخها. خبطتُّ عصاي في الارض خبطةً قويةً ومشيت يرافقني احمد متخلِّفاً عني بما يقارب الخطوة.

لا يقبلون أن أكسب عليهم جولة. كنت ما أزال اتحسس الدرجات الاخيرة

حين انفجرت ضحكة أحمد وهو يطلُّ عليهم من أوّل الشرفة . ضحكة قوية مديدة كأنّه جمّعها أجزاء أجزاء اثناء قعودي بينهم . خطر لي أن أصيح عليه من الاسفل غير انني اكملتُ طريقي وقد ادركت ان من الافضل ان أترك الاشياء على حالها . عرفت انهم كانوا أقلّ تصديقا لنوبتي مما ظننت وأنهم سينتظرون وقتا قبل ان يجعلوا من ضحكته فاتحة لهرج يشتركون فيه جميعا . أكملت طريقي الى سريري فيما أنا اغمض عينيّ وأشدُّ فكّيَّ الواحد على الأخر كأنني اسحق الحادثة التي بزغت في رأسي على شكل بذرة مُرّة مُسمّمة . عرفت ، فيما أنا ممدَّدٌ على سريري ، انهم يجعلون من قعودي بينهم دورا يمثّلونه . يجلس أحمد على الكرسي التي كنت قاعدا عليها ويمدُّ قبضة يده الى الامام ممثّلا امساكي عصايَ التي أجعلها أمامي . يُرجع رأسه الى الخلف ويحدّق فيهم ، ثم يمدُه ويكوّر شفتيه ليقلّد احتيالي على قِطَع الاجاص . تخرج امه من المطبخ لتضحك له ، ويكادون يتحوّلون كلّهم عن المرأة التي تضحكهم لولا انها تقوم ، في غمرة هرجهم ، لتقلّد نوبتي فتتمايل في وقوفها وتهزُّ رأسها في الجهات كأنها تسرع في انهاء رقصة سريعة . سيضحكون لها أيضا ، ولن يقف احد بينهم ليسكتهم ويقول لهم انني جدهم فهم لا يتورعون عن شيء حين تأتيهم فرصة الضحكات الكبيرة . .

حتى انني لن أقول شيئا لأبيهم حين يأتي . لن يفعل لأجلي شيئا وهم لن يتراجعوا عن كسب حقّقوه عليّ . سيبدأون معي من حيث انتهت جولتهم الماضية التي لن يتوقّفوا عندها . حين يرفع ابنهم الاكبر صوته عليَّ فذلك يعني انه انتهى منّي وسلّم امري لاخيه الذي يصغره . يزيدون عمري سنوات في الأشهر ويتصرّفون بحسب ذلك . يكسبون عليّ جولات حتى حين اكون قاعدا وحدي في غرفتي او ممدّداً على سريري . يُسرعون في ايصالي الى ما يحسبون انه الحد الاخير الذي لا شيء بعده . ليس موتي الذي يقصدونه بل وصولي اليه فارغا خاليا الا من جثّتي . يعاقبونني على تخلّفي عن مجاراة سرعتهم في تقديم عمري . يزيدون عمري

سنوات في الاشهر ويرون من جراء ذلك انني لا أكبر كما يجدر بي. كأنني اعاند كِبَري لأكيدهم أو لأفي بالعهد الذي قَطَعْتُهُ لزوجة ابني بأن عزرائيل لا يقدر عليّ. يرون ذلك فيّ حتى وان تمشّيت ساكتا امام الاولاد المالئين الدار جلبةً وصراخاً. ليس صوتي وحده ما يذكرهم بعنادي وتخلّفي عن عمري بل هيئتي كلها. يتسائلون لماذا ارفع رأسي هكذا حين انظر الى احد منهم، ولماذا رجلاي طويلتان ويدي تقدّم العصا الى امام. حتى انهم يحنقون من رؤية عظام قدميَّ الزائدة ويجدون انها من مظاهر قوّتي التي كان يجب ان تزول. يريدون لجسمي أن يرقَّ وينحل ويظلَّ مريضاً ويصير جلده رقيقا محمَّراً مثل جلود العجائز اللواتي تعاقب عليهن المرضُ والنومُ الطويل.

لن اخبر ابني حين يأتي. لن يقول لهم شيئا. سيدخلونه الى سهرتهم من فور وصوله ويجلسونه على كرسيٍّ بنيهم كأنه اعمى لا يعرف حدود جسمه. سيقضي وقته ساكتا متفرّجاً في سهرتهم اذ لن تكفَّ المرأة عن الكلام لظنها انها تبادلهم به الاكل والهواء النظيف. وهم سيظلون ملتفّين حولها يسألونها اسئلة ليضحكوا من اجاباتها. يديرون نحوها وجوههم التي جعلها الاغتسال والاكل بيضاء ومستديرة. مثل أقمار، تقول أمُّهم التي يعجبها ان ترى خدودهم متدلّية مثل كروش. لن يقول لهم شيئا وسيتقدم، ساكتا، الى الطاولة التي وضعوا عليها اكلا كثيرا. تقرّب زوجتُهُ له صحنا وتقول له كُلْ فيما فمها ممتلىء بالطعام الذي تجد مشقّةً في تصريفه. يمسكون البيت بالكلام الذي يجرونه من دون توقف. وابني يرى ذلك شطارة فيهم فيكمل اكله ساكتا ويرجع قبلهم الى كرسيّه. هو مثلي لا يجيد التكلم ولا يعرف كيف يجول فيه. كان ابن عمي الحاج يوسف يتّخذ سحنة المشايخ حين يحكي ويبذلُ كلاما كثيرا ليقول شيئا قليلا. كنت أظنُّه يتزلّف لرجال كان يقصد تعنيفهم فأضطرب في قعودي ولا اعرف ماذا افعل. هممت بأن أطرد الشحاذ الذي لم يعجبه ما اعطيته فاستوقفني واخذ يردد له كلاما من القرآن. يقوم

ابني عن الطاولة لانه لا يعرف حتى ان يجاريهم بضحكه . لا يستطيع مجاراة المرأة التي تتخذ هيئات كثيرة وهي تحكي . تبدّل سحنتها ، وفي خفة ترتدي وجوها وتقلّد اصواتا لكثرة ما تعوّدت ان تحلّ ضيفةً في البيوت .

بيضٌ وجوههم مستديرة لكثرة ما يأكلون ويغتسلون . وأنا لا أكفّ عن أخذ بيتهم العالي من أطرافه فأرفع صوتي على اولادهم وأنادي واحدهم حين يمر تحت نافذتي واشكو أمَّهم لأبيهم واحدث اصواتا على مصطبتي ليروني فيتجدد قلقهم مني . آخذ بيتهم من اطرافه لأجدد معهم زعلي وأذكّرهم به . أقول لابنهم احمد ان يبتعد عن نافذتي لكي يصعد اليهم ويقول لهم أبْعَدَني عن نافذته . ذلك من اجل ان لا يعتادوا على اجراء حياتهم كأنني لست موجودا تحتهم . وأرفع صوتي على الأولاد لكي يسمعوا هم في الاعلى ويدور بينهم لغطٌ حولي . ستقول أمُّهم انها لن ترتاح في الدار قبل أن أموت ، ويروحون هم ينظرون اليّ مصطفّين على شرفتهم . أبدأ زعلي من جديد لانه يكفي ان يمر يومان اثنان على سكوتي وانزوائي حتى يعتاد ابني على ان لا يكون قلقا علي . يومان اثنان ، او ثلاثة ايام على الاكثر ، فبعد ذلك سيكون صعبا عليَّ ان أظلّ راغبا في ما كنت أرغب فيه . سأعتاد على ان لا أقلق على نفسي أنا ايضا وأظلّ في سريري فيأتيني ابني قاسم بالاكل فأؤثر النوم عليه . آخذ بيتهم من اطرافه ، من شرفته ودرجه وأولاده الذين يملأون الدار أمامي . لا حبّاً بأكلهم الذي يرصفونه صحونا صحونا على الطاولة . ولا بأولادهم ذوي الوجوه البيض المستديرة التي هي من صنائع امهم . سحنةٌ يشتركون فيها جميعا كأنها شارتهم التي تميّزهم عن سواهم . سحنةٌ تطغى عليهم وتسيّرهم بحسبها . تجعلهم لا يملّون الكلام بعضهم الى بعض كأنهم غلمان يشتركون في نقيصة لا يبوحون بها . غلمان ، صبية صغار ، لكن بأجسام كبيرة تقوم بينها إلفة مريبة لأن الأخوة لم يفترقوا في الاعمار التي كان يجب ان يفترقوا فيها . يجمعهم البياض الذي في اجسامهم ، وأمُّهم تسمي ذلك نظافة ولا تنفر من النتن الذي في

قلب بياضهم. قرّب كبيرهم قطعة الاجاص من فمي باصابعه التي براها الاغتسال وأحلّ فيها جرباً ميّتاً. قرّبت فمي اليها لألتقطها مثلما يفعل العصفور حين ينقد حبّة أكله ويخطفها من وسط الفخّ الذي يحيطها. يسمُّون نظافةً ان تظلّ الاكف طرية سائلة من الماء والرطوبة اللذين يطلعان منها. يلزم أن يلوّث يده حتى تنظف، وأن يمسك بها أشياء جافّة قاسية. يلزم أن ينظّفها بالتراب وليس بالاجاص الذي لن يزيدها الا زلقا ونتنا.

تصرّفتُ كما لو انني لم اسمع ضحكة احمد ولا الهرج الذي اعقبها. لم أقل لأبيهم حين أتى حاملا صحن الاكل أمامه. بدا متعبا يميل به جسمه الطويل النحيل لكثرة ما تأخّر في شغله. قلت له فات أوان الاكل يا أبي. فسألني ان كنت أريد ان يعمل لي شايا. صعدت الى سريري العالي وهو واقف امامي في وسط الغرفة. عرفت انه سيشفق علي اذ سيحسب انني الجأ الى سريري من وهني لا من نعاسي. تقدّم نحوي ليغطيني فقلت له ان يقعد قليلا فهم يسهرون في الاعلى ولا خوف عليهم. لا يقعد. اعتاد على ان تكون زيارته لي قصيرة، وهو يجعلها أقصر في كلّ مرّة. لا رغبة في الصعود اليهم اذ أنني اراه يصفن قليلا قبل خروجه كأنه يسائل نفسه ماذا في الاعلى. غير أنّه لا يقعد، فالكلام صار قليلا بيننا حتى انني لا اعرف بماذا احادثه اذا قعد. كنت حين أسأله عن شغله يكتفي بشكر الله وحمده ويظن انني لن افهم شيئا مما سيقول. وهو لا يحادثهم عن ذلك في الاعلى أيضاً. يقوم عن الطاولة بعد ان يأكل ويتوجه الى الكرسي البعيدة في آخر الشرفة. لا يحادثهم وانا لا استطيع ان اجذبه نحوي اذ كيف لي ان ابدأ معه احاديث من ذلك النوع الذي يجعل اثنين يبدآن رفقة جديدة. هم منشغلون عنه بسهرهم وهو حائر ماذا يفعل بنفسه. أقعد يا ابني، اقول له. وأنا اعرف اننا سنقضي الوقت صامِتَيْنِ فيما لو فعل. سأصير راغبا في ذهابه ليزول الحرج الذي يزيد من قوّة صمتنا. وسيقوم بعد وقت قليل ويقف قبالتي ويوشك ان يقول ها

انني قعدت ولم نفعل شيئا . يأتيني الكلام وهو يخطو الى الباب فأقول له أن يأخذ صحن الاكل معه وان يقول لاخيه ان يمر عليّ وأن يترك الباب مفتوحا وأن يتنبه وهو يصعد الدرجات في العتم . أكلمه كثيرا اثناء خروجه لكي انسيه الصمت الذي كان بيننا ، او لأفهمه بأننا سنتكلم كثيرا ، هكذا ، حين يأتي في المرة القادمة .

لا استطيع ان ابدأ معه رفقة جديدة ما دمت لا اهتدي الى كلام أديره بيننا . كيف اصبحت صحتُك ، يقول لي ، فأغمغم بكلمات مما يقول الذين يُسألون عن صحتهم . وهو لا يجيب بأحسن حينما أسأله عن شغله . لا يحبُّ الكلامَ الذي تُنفق عائلتُه أيّاماً طويلة في هذره . لا يحبُّ الكلام ، مثلي ، لكنَّه لا يفهم كيف من الممكن أن يقعد ابنٌ وابوه سويّاً هكذا من دون كلام . يجعلني ارغب في قيامه في الدقائق القليلة التي يقضيها عندي لانشغالي بحرجه . ولا أعود استرسل بالطمأنينة تسري فيّ وتكاد تُنيمني . كأن أكون أنا على السرير وهو على الكنباية قربي وكلانا ينظر الى حيث يشاء . يكون يفكّر في أشغاله غير أنه ينشغل بكفّيه فيضمُّهما ويفردُهما مثل ولد في حضرة أبيه . نقضي وقتا طويلا هكذا صامتين ولا يتكلم احدنا الا في الشيء الذي كان يُفكّر فيه . يسألني لمن كانت أرض العريض مثلا لانه كان يفكر في ارض العريض وهو يقلّب يديه أمامه . ولا أكره ان لا يسمعني حين أجيبه اذ انني أنا أيضا أتردَّد في الجواب ، وأبطىء ، لعلمي انه قال كلماته من دون قصد . كأنها طلعت من تلقائها ولم توقف استرساله في ما كان يفكر فيه .

نقعد قريبين هكذا من دون أن تكون بنا حاجة الى الكلام . غير انه لا يفهم قعودنا ساكتين لأنه يرى ان الناس تلتقي لغرض تفترق حين تقضيه . يضعُ صحنَ الاكل امامي ويرتّب أغراضي ويسألني كيف صحّتك يا أبي ويهمُّ بأن يخرج . ينجز الاشياء كلّها في وقت قليل ، كأنه خادم دخل غرفتي اثناء جولته بين

يظنّ أن في سكوتنا عجزا عن الكلام وان علينا ان نفترق لأننا صمتنا. وأنا لا أستطيع أن أقول إنّنا لم نتكلّم لأن لا حاجة بنا الى الكلام. كما لا استطيع أن أُعلن له عن غبطتي بقعودنا ساكِتَيْنِ لان ذلك سيخجلنا معا، وأرتبك أنا فوق ذلك، لقولي كلاما في غير موضعه. سأحتاج الى صمتٍ أكثر قوّةً لينسينا ما قلته فالمودة بين الأباء وأبنائهم الرجال هي من الامور التي لا تُعلن أو تُقال. حتى انه لا يجدر بي أن أقول له اشتقتُ إليك يا ابني فقد يوقعنا ذلك في حيرة لا نعرف كيف نتدبَّرها. سيقف مباغَتاً في مكانه ويتطلّع حوله قلقا كأنني كشفت سرّاً كان يظن اننا متفقان على اخفائه. اذن، أقول له حين يدخل: ولماذا تتركونني وحدي هكذا.. ويجب ان يبدو ذلك معاتبا ومؤنّباً ليتمكن كل منا من لعب دوره الصحيح. يضع هو صحن أكلي على الطاولة الصغيرة ويبدأ يرتّب أغراضي ويكنس غرفتي، وأقوم أنا عن سريري صامتا متثاقلا لأن احدا قال لي انه آن آوان الاكل.

لم أقل له عن ضحكة أحمد ولا عن الهرج الذي اعقبها. وهو لن يقول لهم شيئا ان فعلت لانه يرى أن ذلك سيقحمُهُ في مجادلة يخرج من منتصفها ساكتاً مهزوماً. لا من حججهم، بل من كثرتهم واندفاعهم معا في الكلام. سترجع زوجته الى احداث اكون فيها انا من يُعلي صوتَهُ ويرفع يده. وسيقول احمد انني لم أكن أشكو من شيء وانني مثّلتُ عليهم لأخيفهم. أما ابنه الكبير فسيستفيض في وصف مشكلتي وعمري وسيقول انني افعل هكذا من وحدتي وضجري. يتوزّعون الأدوار بعد سكوته واستسلامه ويروحون يبدّلون آراءهم بي تبعا لأهواء الكلام وتقلُّباته. سَيجُمِعون على وحدتي وضجري وقتا قليلا ثم يعودون عن ذلك حين تذكّرهم أمهم بتجبُّري وقسوة قلبي. ثم يتحولون الى الشفقة عليّ ارضاء لابني الذي يكون قد انزوى على كرسيّ بعيدة مسندا رأسه بيديه الاثنتين. ولن يتمكنوا

من السكوت الا حين تبدأ ضيفتهم بجرّ الحديث الى موضوع آخر. تبدأ من آخر ما حكوه ثم تنحرف فيه كأنها تزيح حمارة من رسنها. تعرف انهم لن يتوقّفوا من تلقائهم فهم لن يقبلوا بالصمت بل بكلام آخر يُنسيهم ما كانوا يحكونه. حتى أنني سأتصرف معهم كما لو انني لم أسمع ضحكة احمد المجلجلة وهرجهم من بعدها. وربما أصعدُ الى بيتهم غدا مُكملا من حيث انتهت جلسة الاجاص. أصعد الى بيتهم واتوجّه الى الكرسي الذي أجلسوني عليه، لا لأنسي نفسي وحدها ما سمعت بل لأنسيهم هم ايضا. بذلك اكون اختار ما يلائمني من الوجوه التي في رؤوسهم عني، واسهر معهم متّخذاً الوجه الذي اكون فيه ضجرا وحيدا. لا أُطلق نظري بعيدا بل أبقيه حولي قريبا مني. كأنني أعيّن حدودا لمجالي ولا أتكلم الا مع من يكون قربي. كلمتان او ثلاث أعود بعدها الى صمتي. ولا أقعد طويلا على اي حال، فبعد ساعة، ستبدأ رؤوسهم بنسج الكلام الذي سينمُون به عليّ.

أسلّمَ الكبير بينهم أمري لأخيه الذي كنت أعطيه منة ليرة ليرضى أن يقصّ شعره. قال لي إنني عشت عمري وعمر غيري وانه يجب عليّ ان اموت. كانوا مصطفّين كلُّهم على شرفتهم، والأولاد تجمّعوا في طرف الدار قريبا من الاحواض. سكتُّ له اذ عرفتُ انني لن استطيع ان افعل شيئا جديدا بعد ادِّعائي النوبَةَ البارحة. ولن أتمكّن من تذكيره بإقامتنا سويا في البيت وطبخي له بيديّ. وهو لن يستجيب لسكوتي فيسكت مثلي طالما انهم وقفوا له جميعا على الشرفة. سيكمل الصياح عليّ لأن دوره حان بعد دور اخيه، وعليه ان يكون قدوةً لاخيه احمد الذي يستعدُّ لجولته باللعب تحت نافذتي وبطرق خشب الطاولة بعظام يده.

IX

أخذتُ ابكي حين سألني ابن ابني لماذا لا أحلقُ ذقني . لا لكي يفهم ان لا احد يأخذني الى النبطية بل لأظهر ضيقي من ابنيَّ اللذين لم يكفّا عن تعنيفي منذ ان دخلا إليّ . كنت جالسا على طرف سريري أمرّر يدي على سطح فرشته كأنني أمهّدها وأسوّيها . لم يطيعاني في شيء منذ ان دخلا . قال لي أبو فايز إن لدى الاطباء شغلا غيري حين قلت لهما أن يأتياني بطبيب . وحين وضعتُ يدي على قلبي متوجّعاً سألني اذا كنت أتوقع ان لا اشكو من شيء وأنا عمري مئة سنة . ولما رفعت يدي ليساعداني على القيام لم يرفقا بي بل امسكاني كما لو انهما يمسكان رجلا غريبا . سألاني الى اين ، فأومأت برأسي الى المصطبة . قال لأخيه يبول على المصطبة ، فيما هو يضع تكشيرته قوية بين شفتيه ولسانه .

كأنهما جاءا ليعنّفاني لا ليسرّيا عنّي .

ابتعد ابن ابني الى أقصى الغرفة أما هما فظلاّ واقفين حيث كانا . كان بكائي يطلع من تلقائه وأنا لم ازد عليه شيئا مني . كان مثل بكاء رجل يبكي بمفرده . لم ترتفع يدي عن فرشة السرير ولم يهتز رأسي وبقيتُ أنظر الى الارض أمامي . ظلا واقفين حيث هما وابن ابني ابتعد الى اقصى الغرفة متنصّلا ناجيا بنفسه من الحرج الذي أوقعتهما فيه . لم يعرفا ماذا يفعلان ، فكأنني ، ببكائي ، قد كشفتُ لهم عن

انني كنت عارفا معنى الكلام الذي يوجّه لي والقسوة التي ألقاها . وبدا لهما انني كنت محتفظا دائما بوعيي هذا وها انني اظهره الآن بعد ان نفد صبري ولم أعد قادرا على مجاراتهم في لعب الأدوار التي يشاؤونها لي .

كان بكاء حقيقيا ، من النوع الذي لا يضيف عليه صاحبه كلاما بل يغالبه ويحاول انهاءه . لم يفعلا شيئا . لم يتقدَّما نحوي ولم يتراجعا . وأنا عرفت انهما جَزِعَا من انفرادي بنفسي ونسياني لهما . كأن الذي رأياه فيَّ ملاكي الذي أتى يتوعدهما بعاقبة معاملتهما لي . وقفتُ وحدي مسندا يدي على حافة السرير . واخذت ، بيدي الأخرى ، أسوّي اللحاف لأنام . بدوتُ كأنني اطردهما حين نمت منصرفا بوجهي الى الحائط . سمعتهما يسألان ابن ابني المبتعد الى اقصى الغرفة لماذا اختار هذا الوقت ليذكّرني بلحيتي . قالها ابو فايز بكلمات هامسة لكن كأنّه يبصقها بصقا من شفتيه المزمومتين المكشّرتين . عرفتُ انه يحاول تبديد قلقه بارجاعه الامور الى المجرى السابق الذي يبدو بكائي فيه نقيقا واحتيالا وخَرَفاً . وقد فعل تأنيبه لابن أخيه فعلَهُ السريع فيّ فشعرت أن الدور الذي كنا فيه قد انحسر ، وانني أفقد القوة التي حصَّلتُها من بكائي وانزواني .

قلت لهما وهما ينسلاّن الى الخارج ان يأتياني بالسيد مهدي من ضيعته . وقفا قريبا من الباب واخذا ينظران الى وجهي كما لو انهما يتبيّنان فيه علامةً يعرفانها . كنت قد عزمت على ان اترك طلب السيد مهدي لوقت اكثر حرجا فهم لا يستجيبون للشيء الواحد الا مرّةً واحدة . مرة واحدة جاء الطبيب الذي اخذ يفحصني على عجل ويحادثني في اكلي ونومي كما يحادَثُ الاولاد الصغار . ومرّة واحدة يصدِّقون ان النوبة أتتني فيصعدون بي الى بيتهم ويُسهرونني بينهم . ومرّة واحدة يربكهم بكائي ويحيّرهم ، وهم سيقولون ، ان بكيت بعد ذلك ، انني احببت الدور الذي أجَدْتُهُ وانني سألعبه في كلّ مرة التقيهم . لا يفيد الشيء الواحد الا مرّة . أقول لابني قاسم أقعد يا ابني وأعرف انه لن يفعل لان الكلام لا

يطلع قويا على غرار المرة الاولى. أقولها مترددا. في المرة الثانية، كأنها صدى أرجعه لصوت أطلقتُهُ في مرة سابقة. اريد الطبيب يا أبو فايز، فيقول إن لدى الاطباء شغلا غيري. لا يصغون حتى حين أدلّهم على موضع وجعي بيدي لانهم يرون ان الوجع ليس بالامر الجديد علي. يريدونني ان اتفنّن في اظهار وجعي حتى يصدّقوه، وان أجد طرقا تقنعهم هم بحاجتي الى الطبيب. عليّ ان اخترع طرقا وأؤلف انغاما أقول بها ما أريد قوله. ويجب ان يبدو ذلك حقيقيا ما دام اعتقادهم باحتيالي ونقيقي لا يفارقهم. قلت لها أن يأتيا بالسيد مهدي وأنا عارف انهما سيأتيان به. ليس فقط لأنني أطلبه للمرة الاولى، بل لانني، بطلبي اياه، اكون أسلّم بموتي وأقبل به. نظرا إليّ ليتبيّنا العلامة التي يظنان انهما يعرفانها. وأنا أبقيت نفسي على حالها اذ لا يجدر بمن يستقدم موتَهُ أن يرقّق صوته ويغيّر هيئته. قلتها هكذا كأنني أنتقم منهما بدفعي نفسي الى الموت. اقتربا مني وسألني أبو فايز بماذا أحسّ، فقلت انها تطلُع. كيف؟ سألني. فأومأت الى قلبي ثم نفثتُ نفثةً من فمي كأنني اخرج الهواء والبخار اللذين يحيطان بها ويسدّان طريقها.

خرجا معا مسرعين وتركاني لابن ابني الذي سيخرج مسرعا، مثلهما، بعد وقت قليل. يترك مكانه في اقصى الغرفة ويقترب مني ليسألني ان كنت محتاجا الى شيء، ثم يقول انه خارج وسيرجع بعد قليل. وحدي في الغرفة انتظر السيد مهدي الذي لن يُتاح لي ان احادثه أو أن أنفرد به. وهو لن يسألني عن موضع ألمي طالما انهما تمكنا من وصف حالتي له وهم في السيارة على الطريق. سيرى ان ما اخليته من الحياة تحول الى مسافة تفصل بيننا. وهما سيجريان الكلام كلّه قبل أن يصلا به الى بابي. يلتقيهما لا في الرفقة ولا على كلام تبادلوه قديما بل لوجوده معهما على سويّة واحدة من الحياة. يلتقون على اختلافهم عني، والسيد مهدي سيختار ان يكون أقرب الى عمريهما ولن تتجاذَبَهُ نفْسُهُ طويلا بيننا. حتى انه سيحكي الكلام الذي يريدانه ويسلّم لهما على غرار ما يسلّم الكبارُ لمن هم أصغر

منهم عمرا .

لم يفعل ، كان يتقدمهما مسرعا بعمامته وجُبَّتِهِ التي تتطاير أطرافها من خلفه . حتى أنهما لم يعرفا كيف يماشيانه في ساحة الدار لاضطرابهما بين سرعته ومقامه . قال لهما أن يبقيا في الخارج حين حاولا الدخول من بعده . هممتُ بالقيام له من سريري غير انه ابقاني ممدَّدا بحركتين اثنتين من يده . قلت له السلام عليكم فيما هو يقترب مني ويبحث ، في الوقت نفسه ، عن كرسيٍّ يدنيها من سريري . قال وعليكم السلام ورحمة الله فيما هو يمسك الكرسي التي اهتدى اليها في طرف من الغرفة . أدناها من السرير حتى كاد يلصقها به ، وجلس ، وهو يلقي عليَّ السلام من جديد كأنَّه يبدأ وصولَهُ مرَّة ثانية .

قلت له انه أرذل العمر يا سيد مهدي ، واتخذتُ سحنة البكاء لكي لا يفهم من قولي أنني أفعلها في سريري . ردَّد آية او آيتين من القرآن قال في نهايتهما ان الله مع الصابرين ، ثم تشاغل بالنظر الى مسبحته منتظرا انتهائي من بكائي . قلت له هل بكى ابوك في ايامه الاخيرة ، فردَّد آية اخرى من القرآن فيما عيناه لا تفارقان المسبحة التي بين يديه . ظلَّ صامتاً خافضا رأسَهُ منتظرا أن أبدأ أنا الكلام الذي اتيتُ به من أجله . إنهم يسيئون معاملتي ، قلت له بصوت خال من التشكّي ، فرفع عينيه إليَّ وفكّر قليلا قبل أن يسألني إن كانوا يتركونني وحيدا في مرضي . قلت له انهم يتركون اولادهم يرفعون اصواتهم عليَّ ويهينونني . هممت بأن أبكي من جديد حين رأيت عينيه متَّسعتين متسائلتين كأنه ينتظر ان أقول له انهم يمدُّون أيديهم إليّ .

ـ والطعام ، سألني ، هل يبخلون به؟

ـ ليس كما يأكلون ، صحن واحد يا سيد مهدي ، كما تُطْعَمُ الكلابُ والقطط . وهم يقفون فوق رأسي حتى آكل ما فيه ويأخذونه معهم .

ـ لكن هل يكفيك ما فيه؟

ـ لا يؤكل يا سيد مهدي، باردٌ ولا مرقَ فيه.

ـ وهل يأتون به في أوقاته؟

ـ في اوقاته، وقبلها أيضا. يأتونني بالغذاء قبل الظهر لينتهوا منه مبكرين. قل لي يا سيد مهدي هل كان ابوك يعلم كثيرا عن الموت وهو في نزعه؟

عاد الى التحديق في مسبحته التي بين يديه. ابتعد بنفسه مرة اخرى اذ حسب ان سؤالي طلع من فزعي وحده. جعل رأسه مائلا وكتفيه منخفضتين منحنيين مثل من لا يملك أن يواسي مصابا. وأنا لم أنتظر جوابا لأنني عرفت ان ما قلته هو من الكلام الذي يتوقَّف الناسُ عن اللهج فيه منذ أن يبلغوا.

ـ ماذا أفعل بهم يا سيد مهدي، هل استطيع ان افعل شيئا؟

عاد الى النظر المتسائل إليّ مرَّةٍ اخرى وقال:

ـ هل تنوي ان لا تسامحهم؟

لم أجبه. فكَّرت انه سيقف بينهم فور خروجه من عندي ويبلِّغهم لعنتي.

عاد الى سؤالي مرة ثانية

ـ ألن تسامحهم؟

ملت برأسي أنا هذه المرة، وأحنيتُهُ. يريد ان يخرج من عندي بشيء يُقال ويُبلَّغ، وانا لم أتيقَّن من قدوم ميتتي بعد.

ـ تسامحهم اذن؟

لم أجب ايضا. ظللت صامتا مائلا برأسي. ثم نظرت اليه متودِّداً لأذكِّره بالكلام القديم الذي كنا نتحادث به.

ـ اريد ان يطيعوني يا سيد مهدي .

نظر إلي نظرة معاتبة كاد يسألني في آخرها ، ان كنت ما ازال افكّر بمستقبلي . .

ـ لا أقصد ان يعيشوا بحسب ما أقول ، بل أن يطيعوني في ما يخصّني .

لم يعجبه قولي . وبدأ يفكّر انني لم ارسل في طلبه الا لأشكو له امري منهم .

ـ اين مرضك؟ سألني ، كأنما ليتأكد من انني مريضٌ حقا .

ـ في قلبي ، وفي عمري ايضا . واشرت بيدي الى المسافة بين رجليّ ورأسي لأفسّر له ان مرضي هو في جسمي كلّه وان كلّ شيء فيّ يؤلمني :

ـ كانت فيه قوّةٌ لكنهم اماتوها . أماتوا جسمي يا سيد مهدي بالترك والتنصل والاهانة . جعلوني اسكت عن اهاناتهم وانام وأنا في عزّ يقظتي وأخجل إن بدا جسمي اقوى من عمره . وأنا أمَتُّهُ معهم بالقعود والنوم وانتظار الموت . اخرجوني من فرني وأرضي واحتلوا بيتي احتلالا بأولادهم . وهم يرمونني بالخرف كأنهم يحبُّون أن أقع فيه . وهم يستعجلون وصولي الى عمر المئة لظنّهم ان لا احد يعيش بعده . ومنعوا عليّ شهوتي يا سيد مهدي ، أماتوها بالضرب عليها ، كأنها حيّةٌ تسعى في بيوتهم .

لم أكترث لصوتي الذي ظلّ يعلو حتى وصل اليهما على المصطبة . سمعاني . حتى انهما فتحا الباب ليستعجلا انتهاءنا . قال لهما السيد مهدي زاجرا اننا لم ننته بعد ، فارتدا عن الباب وأغلقاه .

ـ هل اقول لهما شيئا؟ قال ، لأفهم انه يستعد لانهاء الجلسة .

ـ لم نتكلّم في شيء بعد ، قلت .

ـ عما نتكلّم؟

ـ عن وصيّتي .

ـ قلها اذن . . قلها . .

أوقعني في الصمت من جديد . يريد ان أقول أشياء يبلّغها ويقولها . وأنا نسيت مع من صارت العشرة آلاف ليرة التي أنقّلها بينهم .

ـ هل لأحد دينٌ عليك؟

ـ لا احد ، سوى ان اخت الحاجة خديجة زوجتي لم تسامحني .

ـ وهل سامحتها أنت على عدم مسامحتها؟

ـ خرجت من الغرفة غاضبا بعدما سألتها مرتين ولم تجب . لم أكن أعرف انها تفهم زجري لها وصراخي عليها . كانت تطيع حين أدفعها بيدي ولا تقول شيئا لأحد . .

ـ ومن سواها؟

ـ لم أسألهم ، حتى زوجتي لم أسألها .

ـ أقصد هل انت مدين لأحد سواها؟ هل لأحد مال عليك؟

ـ لقد اخذوا المال كلّه . لقد اورثتهم في حياتي يا سيد مهدي .

ـ والبيت؟

ـ انه لهم ايضا . انني مقيم عندهم . . في بيتهم . .

ـ ماذا ستقول في وصيّتك اذن؟

لم اكن اعرف أن ليس عندي ما أقوله حين أرسلت في طلبه .

ـ لا شيء يا سيد مهدي ، لا شيء .

ـ هل نسيتَ شيئا لم تقله؟

ـ لا شيء .

قام عن كرسيّه وسوّى جبّته على كتفيه . ألقى آية من القرآن حثّني فيها على الصبر، واستدار نحو الباب الذي فتحه ولداي قبل ان يصل اليه، وقبل ان يخرج التفت اليّ وسألني اين اريد ان أُدفن .

ـ في الجبّانة يا سيّد مهدي، في الجبّانة .

X

كثيرون كانوا في بيت محمد حبيب. بعضهم اعرفه وبعضهم لا اعرفه. يملأون الغرفة التي صُفَّت عند أسفل حيطانها طراريحُ وكنباياتٌ وكراسٍ بعضها جيء به من عندي. كان الضوء يأتي الى الغرفة من اللوكس الذي علّقوه في الخارج، ووجه محمد حبيب يتراوح بين الصِغَر والكِبَر يميل به فأراه أصغر بعشرين سنة او ثلاثين. ليس كما كان في ذلك العمر، بل كما هو الآن، لكن مشدودا متورّداً في طريقة مصطنعة. يستعيد سحنته حين ينصرف عني وأنسى أن أسأله لماذا لا يجلبون اللوكس الى الداخل. تعتمُ الغرفة حين يصير محمد حبيب في آخرها. أهمُّ أنا بأن أقومَ لأحضر اللوكس المعلَّق في الشجرة فأرى أنني ثقيلٌ مقعدٌ في مكاني وبلا قوّة. يسهرون في الغرفة التي تعبق برائحة قديمة، وبين من أعرفهم رجالٌ قديمون أيضا، عرفت في هذه السهرة فقط انهم أقرباء لمحمد حبيب.

ثقيل ومقعد حتى أنني لا أقدر على رفع يدي لأشير لمحمد حبيب بأن يأتي إليّ، غير انه يدرك ما بي فيلتفت إليّ من تلقائه. يصير وجهه اكثر توّردا واصطناعا ويحيّيني منقّلا يده بين رأسه وبطنه مرات متتالية كأنه يقلّد نفسه. أفكّر انه يدعوني للسخرية منه، لكن عينيه الجامدتين ووجهه الاصطناعي تخيفني فأبتسم له ابتسامة تجعل وجهي جامدا ايضا لكثرة ما تطول.

وجوه أعرفها وأخرى لا أعرفها . غير انني أرى نفسي وحيداً بينهم اذ بدا لي انهم كانوا يسهرون كلّ ليلة قبل ان أنضم اليهم . أرسلوا إليّ رجالا ظلّوا يدقّون على بابي بأيديهم حتى قمت . أدخلوني الى بيت محمد حبيب وذهبوا ليحضروا رجالا اخرين من بيوتهم . يدخّنون في الغرفة التي لا اعرف كيف جيء بكراسي إليها ، ويكلّمون بعضهم بعضا فيما هم يدخّنون . غاب محمد حبيب فازددت وحدة بينهم ، وحين رجع حاملا صينية الشاي سُررت به وكلّمت رجلا جالسا بقربي . انحنى وهو يقدّم الصينية إليّ مرتين او ثلاثا ليضحكني من نفسه . غير ان وجهه الذي اقترب منّي كثيراً اخافني مرّة اخرى اذ بدا كأنه يتهددني لانني سخرت قديما منه . ابتعد بالصينية قبل ان آخذ كوبا منها . كان عليّ الا آتي معهم . غير انهم كانوا يُطلعون اصواتا تزداد علوا وسرعة وعرفت انهم سيعودون الى ذلك من جديد إن أغلقت بابي في وجوههم . خرجتُ معهم قبل ان أضع مشّايتي في قدميّ . وفي السهرة ، كنت وحدي بقدمين حافيتين ، بينما محمد حبيب يرتدي ثيابه الكثيرة التلافيق مكويّةً وجديدة .

كأنني قمت من بينهم لكي أبول على المصطبة ، حتى أنني . وأنا أنزل عن سريري . ظننت أنني متوجّه الى خلائهم حيث الشجرة التي علّقوا فيها الضوء . اهتديت من دون عناء الى الكيلة التي أُسقط فيها بولي . لم اكن خائفا ، بل منزعجا من نظرة محمد حبيب التي كانت تزداد توعُّداً كلما ازداد اقترابا . بِلْتُ على عجلٍ من دون ان يسقط من بولي شيء حوليّ أو على ثيابي ، ورميت ما في الكيلة بغتةً إلى الجلّ مستبقا بَصَرَ أحد قد يقع عليّ . أرجعت الكيلةَ إلى مكانها وتوجّهتُ إلى سريري على عجل ، خوفا من ان يستأخروني في السهرة فيرسلوا الرجال ليأخذوني من جديد .

كانت الغرفة قد خلت من أكثرهم . ومحمد حبيب بدا أطيب قلبا بين من رأيت أنهم أهله وعائلته . حتى أنه جعل يعتذر لي على أخْذِهِ الصينيّة قبل أن

أتناول كوبي ويهزُّ رأسَهُ موحيا بأنه سيحضر لي شايا حقيقياً بعد قليل. كانت زوجته قاعدة على طرّاحة غير بعيد مني، حيَّةً لم تمت. وحين يوليني محمد حبيب ظهره تروح تنظر إليَّ نظراتٍ غريبةً لتفهمني بأنها مثلي، ترى أن محمد حبيب مضحك بثيابه وحركاته. كانتا عينين لامعتين في وجه متغضِّن، والحاجبان اللذان يحيطان بهما كانا مستويين مشذَّبين كأنَّهما لامرأة في الثلاثين. ظلَّ محمد حبيب على وقفته موليا لي ظهره من أجل ان تزداد نظراتُ المرأة لمعانا واتّفاقا معي على ما هو اكثر من ثياب محمد حبيب وحركاته. لكنني نفرتُ من الوجه المتغضِّن الذي بدا غريبا مفزعا حول العينين اللامعتين. أزاح محمد حبيب نفسه من مكانه ليفسح الطريق لأولاد كثيرين اخذوا يطوفون في الغرفة، ثم تقدّموا نحوي وبدأوا يدوسون أطراف قدميَّ الحافيتين. يتوالون عليها ولدا بعد ولد كأنهم يتبارون ليختاروا من بينهم من يستطيع ازالة عظامها الكثيرة الزائدة.

كانتا تؤلماني حتى انني عجبت كيف استطعت ان ابقى غافيا بينما هم ينهالون عليهما بنعالهم الصغيرة القاسية. اشتدّ الالم فيهما حين أنزلتهما الى الارض هامّا بالذهاب، مرّة اخرى، الى المصطبة. كانتا متورِّمتين من أثر الكمدات الكثيرة فرحتُ أرمي بثقلي كلُّه على عصاي وأتحايل بمشيتي تحايلا. لم تزل الكيلة في مكانها. هبَّت الرائحة القويَّة حين رفعتها كأنني أوقظتها بلمسي الكيلة ورفعها من موضعها. هبَّت الرائحة ايضا من الفسحة الباطونية التي في الأسفل ومن طرف الجل الذي كان يسقط بولي إليه. رائحةٌ عابقةٌ ومختلطة كأنها ليست من بولي وحدي. ظننت للحظة انهم يفعلونها مثلي في الاعلى ويرمون ما في كيلاتهم الى الجلّ. لكني عدتُ وفكرت ان البول يصير كريها حين ينقضي وقتٌ على خروجه منا فلا يعود يشبه شيئا فينا. كدت أهوي حين أدنيتها مني وعرفت أنني لن استطيع ان أفعلها اذ لن تمكّنني قدماي وحدهما من الوقوف. لم أفلح ايضا في اسناد نفسي الى درابزين المصطبة فترددت يداي بين العصا والكيلة. افعلُها قاعدا

اذن، على واحدة من الدرجات المؤدية الى بيتهم، والقريبة من فسحة الباطون الوسخة.

كانتا قد ازدادتا تورُّما حين عدت الى السرير الذي تسلَّقته بركبتيّ. غطَّيت نفسي باللحاف لكن أبقيت رأسي عاليا مرتفعا كيلا اغفو فيعود الأولاد إليّ ويبدأون دوْسَ قدميَّ من جديد. كما أخفيت قدميَّ أيضا تحت اللحاف لئلا تبينا لهم. أبقيتُهُ عاليا مرتفعا وجعلت أتذكّر محمد حبيب في صورة طبيعية وهو واقف عند مدخل بيته. ألقيت عليه السلام فابتسم لي وانحنى فيما هو ينقِّل يده بين بطنه وجبهته. كرَّر حركته مرَّة اخرى وكاد يستمرّ في تكرارها حين عرفت أنني بدأت أغفو من جديد. نفضت رأسي مبعدا النوم عنه. رأيت الضوء قد بدأ يطلع في الخارج، أقلَّ من اللمبة المضاءة في غرفتي لكنه، رغم ذلك، تمكَّن من أن يجذبني اليه. ملت بجسمي ناحية النافذة، واستسلمت لنوم الفجر العميق، لكن الذي لا تكفّ اليقظة من مخالطته.

حدَّقت طويلا في وجه من أيقظني قبل أن أعرف أنه ابني. كان يحمل الصينية بيد واحدة ليساعدني على القيام باليد الأخرى. سألني ما بي فنظرت اليه مستفهما كأنني سهوت عنه. عرف انه لن يفلح في إنهاضي عن السرير بيد واحدة فتردَّد وقتا أين يضع الصينية. أعليت اللحاف عن قدميّ محاذرا ورفعت احداهما بعد ذلك كأنني أرفع حملا ثقيلا. سألني ما بهما حين رآهما متورِّمتين فظللت صامتا لكي لا أبدِّد قلقي الليل كلَّه باجابة واحدة. سألني ما بهما وهو يُدني وجهه منهما هذه المرة فلم أجب ايضا. أبَنْتُ الوجع الشديد على وجهي حين هممت بأن أقف عليهما. قال لماذا هما متورِّمتان هكذا، فيما هو يحاول أن يحملني الى الكنبابة القريبة من سريري. تشبَّثت بالسرير لأفهمه اني لا أستطيع أن أقوم. وحين سألني ان كنت سآكل طعامي هززت رأسي رافضا.

ـ انهم يضعون حديدا في أطراف احذيتهم.

ـ من يا أبي؟

ـ هم، الأولاد في بيت محمد حبيب.

أدنى وجهه كثيراً منّي وأخذ يحدّق بي متحقّقاً من شيء.

ـ وأين رأيتَهُمْ يا أبي، قال، وهو يتنبّه كثيرا لما سأقوله.

ـ من هم؟ سألتُهُ، إذ انتبهت فجأة الى انني قلت اشياء كان عليّ ألا أقولها.

ـ الأولاد في بيت محمد حبيب، أجابني.

أعليت قدميّ عن الارض ليراهما وقلت له ماذا سأفعل بهما، هل ستأتونني بالطبيب من النبطية؟ انتظرَ وقتا قبل أن يسألني مرّة اخرى عن محمد حبيب والأولاد الذين في بيته. لم أُجب بشيء. وتشاغلتُ بالنظر الى ما حول جسمي ويديّ. نظرتُ إلى صينية الأكل وقلت له خذها، خذها، لكي أبدو حانقا من عدم اهتمامه بتورّم قدميّ. أمسكها وتوجه بها نحو الباب، وقال لي من النافذة، بعد ان خرج، انه سيعود.

ـ سأعود يا ابي، سأعود، ان احتجتَ شيئا أخبط بعصاك على النافذة.

لم يكن قد مضى على صعوده وقتٌ طويل حين بدأ أولاده بالنزول إليّ. اقتربَ الكبيرُ منّي واخذ يحدّق بقدميّ عن قرب ثم اخذ يجسّهما بأطراف اصابعه التي اتخذت الشكل الذي اتخذته وهو يزقمني الاجاص. سألني بصوت رائق ما بهما، فأجبته بأنهما متورّمتان. دخل اخوه واخذ يحدّق بي متحققا مما سمعه عني من ابيه. كانت حركاته تتراوح بين النزق والفضول وكان لا يستطيع اخفاء معرفته بما سمع عني، حتى انه همّ بان يقول شيئا لولا ان أسكته اخوه. اما اختهم فوقفت قريبا من الباب تسألني عن صحتي وفي يدها الدلو وأدوات المسح التي أتت بها لتزيل بولي عن الدرج. تركت مسافة خالية بينها وبين السرير لكي تريني ما

تحمله، وانا عرفت انها لم تكن تفعل ذلك لو لم يشتركوا جميعا في الحديث عن خرفي. نزلوا إليّ ليتحققوا من أمري كلٌ على طريقته، وهي حملت دلوها وأدواتها ووقفت أمامي لكي تتبيّن الدرجة التي وصلتُ اليها في غفلتي. تحسب ان من يفعلها على الدرج في طريق الصاعدين والنازلين لن تُعيبه رؤيتُها تُمسح وتُزال لأنه هو الذي بادر الى كشف أمره. قالت كيف صحّتك يا جدّي، مرّة ثانية، للتأكد من أنني اراها ولا أفعل شيئا. بقيتُ صامتاً لم أجب، وقد مكّنني من ذلك تقليبي نظري بينهم اذ لم يكف كلٌ من أخويها عن جذب انتباهي اليه. أُنقّل رأسي بنيهم. يسألني الكبير منذ متى بدأ وجعي وهويحدّق في قدميّ من الجهات كلها. أما احد فأكثر الحاحا وتعجلا. يسألني لماذا هما هكذا لأعيد أمامه ما قلته لأبيه. يستنطقونني دليلا ثانيا على خرفي وقد أتوا ثلاثتهم ليشهدوا على ذلك مجتمعين. يريدون أن أقوله قولا، ان أُخرجه من فمي اذ لا تكفيهم رؤية بولي على الدرج وزلّتي امام ابيهم الذي تفنّن في نقلها اليهم. جعل وجهه حزيناً متأسّفاً امامهم رغم علمه انه يبدو لهم كمن يزفّ شيئا. قال لهم اني خرفت، وابتعد من بينهم ليلحقوا به. من أجل ان يقتُر في الحكاية ولا يقولها دفعة واحدة. يمهّد لها في وقفة ويوشك على قولها في وقفة. كأنه يلاعبهم، رغم سحنة التأسف التي لم يخلعها عن وجهه. لقد خرف وانتهى امره، يقول لهم ليزدادوا فضولا ويسألونه ماذا فعل؟ ماذا فعل؟ ماذا قال؟ يريدون الحكاية نفسها، لا خلاصتها التي هي قولي في آخرها ان أولادا في بيت محمد حبيب يضعون حديدا في اطراف احذيتهم. يريدونها من بدايتها، منذ رأى بولي على الدرج فأسرع إليّ. نزلوا إليّ ثلاثتهم لا ليتحقّقوا من خرفي فقط بل ليشاهدوا كيف هو وجهي بعد الخلط الذي ألمّ بي. أخذوا يسألونني أسئلة حتى أقلّبه بينهم وتزوغ عيناي وأصير أحدّق فيهم كما لو أنني لا أفهم ماذا يقولون.

ـ أنا ذاهبة الى الدرج. قالت فيما هي ترفع الدلو لنراه جميعا.

ـ الى الدرج؟ انتبهي لئلا تقعي؟ قال احمد بصوت جعله عاليا .

ـ اذهبي ، اذهبي ، قال لها اخوها الكبير منبّها اياها انها تدفع الامر الى أبعد من حدّه ، هل تؤلمانك كثيرا يا جدّي؟

أعليتُهما عن الأرض لأريه كم يقلّصُ الألم وجهه ويقبضه من جرّائهما .

ـ لماذا لا يأتونني بالطبيب من النبطية؟

أدنى وجهه منهما كأنه سيرى فيهما شيئا لم يره في تحديقه السابق .

ـ سننتظر الى العصر، قال ، فيما هو يقوم ليلحق به اخواه .

لم يفعلا لي شيئا . تركاني على الكنباية وحدي لانهما لم يأتيا الا ليسمعا اشياء يرويانها في الاعلى . يقف احمد ويروح يحكي لهم ما قال هو وما قال أخوه وكيف وقفتْ اختُهُ تحمل الدلو وترفعه عاليا لكي أراه . يضحكون على أشياء قالوها هم متحايلين على رجوعهم بأيد فارغة . وهم سيعملون التفسير في ما تهيّأ لهم من نظراتي وصمتي ليعثروا على علامات أكيدة على خرفي . لا في نظراتي الزائغة وحدها بل في الورم الذي جعل قدميَّ ضخمتين منفوختين . ذلك لا يصيب إلاّ من فقدت عقولُهُمْ القدرةَ على تدبير أجسامهم ، يحسب ابنهم الكبير الذي استمرأ الضغط على الورم باصبعه كأنما راقه أن تشبه الأقدام المتورمة مطّاطاً منفوخا . ذلك من ذهول عقلي عن جسمي ، يحسب . ويضغط باصبعه على أكثر المواضع ورما كأنه يجسُّ شيئا لا يؤلم طالما انه انتفخ هكذا من تلقائه . يرى في ذلك علامة على فلتان أشيائي مني ووقوعها في أعراضها فجأة من دون أن تسلك السبيل الذي تسلكه الأمراض في العادة . ينظر الكبير إليّ ليسألني ما بهما يا جدّي فيرى البياض الذي بدأ يغشى عينيّ فيظنّ أن ذلك لا يؤثّر في بصري وحده فيزيده ضعفا ، بل انه يُغيّبني عن نفسي ويُنسيني ما كنت أذكره من أيامي . لا يقول لي ما بهما عيناك يا جدّي لأنه يظن أن ما بهما سر لا يعرفه أحد سواه .

يرون أنني أفسد من داخلي وخارجي معا وتصيبني الأشياء التي يحول لونُها من عتقها. تفتّشُ أختهم عن بيوض في بولي لظنّها أنه لا يعقل أن يخرج مني شيء لم يفسده كبري. تزيله عن الدرج وهي تحاذر ان تغوص المكنسة فيه وتكثر من دلق الماء كما لو أنها تقتل نجاسته قتلا. لن يسألني ابني ابو فايز حين يأتي لماذا بلت على الدرج لكنه سيعطي تكشيرته شكلا هو الذي تتّخذه الشفتان والأنف حين تتقي الرائحة الكريهة. أرأيت، يكاد يقول لي، ألم يكن أفضل لو متّ في المرض الأخير، يقترب مني لينظر الى قدميّ فيما هو يضيف تساؤلا على شفتيه وأنفه وتكشيرته.

لن يقول لي ابني ابو فايز لماذا بلت على الدرج اذ سيعصمني ما سمعه عن خرفي من قوله. ولن يعودوا الى رفع صوتهم عليّ في ساحة الدار بل سيقفون قريبين مني منتظرين الكلام الذي سأقوله. يضحكون له في الأعلى أولا، ثم يروحون يطلقون ضحكاتهم المجلجلة وهم حولي. لا أغضب منهم كما لا يغضبون هم مني. أين الطبيب، أقول لهم، فيجيبونني بأنه آت على الطريق. تأخر لأن حادثاً جرى له، يقول أحمد، وهو الآن ينتظر سيارة تأتي به بعدما تحطّمت سيارته. يطلقها مجلجلة عالية بعد ذلك وينقّل عينيه في من حوله كأنه يشهدهم على ما قاله. أما أبوه فيرى بولي على الدرج ولا يقول لي. لكنه لا يعود يكلّمني حين يدخل الى غرفتي لظنه أني لم أعد مالكا أمري. ينتظر اخاه ليسأله ماذا سيفعلان برائحتي. يتكلّمان في ذلك امامي وأنا أسمع وأظل ساكتا لمعرفتي أنه علي أن أدفع ثمن تغاضيهما عن أفعالي وكفّهما عن زجري. وسيكون عليّ أن أؤكد لهما كل مرّة انني ما زلت غافلا عما أفعل والا سيقولان لي، إن طال بي الوقت وأنا على سويتي: لماذا بلت على الدرج، كنت قبل ذلك تفعلها في الكيلة؟ أرفع صوتي عليهما متسلّحا بما يظنّانه بي: وأين أفعلها، الا يكفيني أني أفعل الكبيرة كأنني أحبّبهما وأخفيها مثل القطط؟

أعطيهم واحدة من هذه كلما رأيت أنه آن أوانهم ونفد صبرهم . تركوني وحدي متورّمَ القدمين على الكنباية لا استطيع أن أقوم . أمسكتُ عصاي وأخذتُ أخبط بها على النافذة . كانوا في الأعلى كأنهم ينتظرون الصوت اذ لم أكد أضع عصاي الى جانبي حتى سمعت ركضهم على الدرج . ظنوا انني سأقرُّ لهم هذه المرّة وأقول لهم شيئا مما كانوا ينتظرونه . كان أحمد وحده . نظرتُ اليه كأنني أسأله لماذا أحدث هذه الضجة وهو نازل على الدرج .

ـ ماذا تريد يا جدّي ، قال .

ـ أكلي ، اريد أكلي . وهل يظنّ أهلُكَ أن الناس تعيش من دون أكل؟

لن يتأخر كلامي كثيرا حتى يصل اليهم في الاعلى . سيقول لهم أكلي . . أريد أكلي ، ويكمل لهم ما قلته عنهم . يسألونه ماذا قال فيجيبهم ، أكلي . . اريد أكلي مستعيرا لهجتي وصوتي . كأنه يترك لهم أن يتأوّلوا كلامي الذي لم يعد يعني الشيء الذي اريده فقط . وكيف قالها؟ يسألونه . . تقول أمُّه إن خرفي سيزيدني لؤما وتجبُّراً وتشير لابنتها بأن لا تملأ الصحن كلّه لكي لا تنفرط معدتي وأوسّخ ما حولي .

ـ هكذا تأكلون انتم؟ قلت له حين جاء بالصحن ، فعرف أنني أستفرده .

وقف أمامي متردِّداً حائرا ولم يقل شيئا لعدم معرفته كيف سأكون في اللحظة التالية .

ـ كُلْ يا جدّي ، كُلْ .

ـ وأين هو أبوك؟

ـ كُلْ يا جدّي ، قال وهو يتراجع الى الباب محاذرا من أن يمتد اليه شيء يخرج مني ويقطع عليه الطريق .

قلت لهما حين جاءا معا في العصر أن لا يتركاني وحدي في الليل. كان ابو فايز ينظر إليّ من بُعد خطوات ويسأل أخاه ان كنتُ حقا لم آكل طيلة النهار.

ـ يطلب أكلا لا يأكله، قال أخوه.

أما أنا فأنقّل بصري بنيهما كأنني أشاركهما باستماعي وأنتظر ان يقرّرا شيئا بشأني.

ـ وهل تؤلمانه؟ قال وهو يخطو متجها إليّ.

ـ هل تؤلمانك؟

نقّلت عينيّ في وجهه.

ـ رجلاك، هل تؤلمانك؟

حرّكت يدي حركة خفيفة لكي يعيد سؤاله الذي لم أفهمه.

عاد الى حيث كان واقفا قرب أخيه، ثم اقتربا مني معا:

ـ هل نأتيك بالطبيب من النبطية؟

لم أقل شيئا، رغم انني عرفت انهما سيعاقباننني على صمتي بخروجهما بعد قليل. لفظت شيئا حين باتا قريبين من الباب.

ـ ماذا قلت؟ سألاني معا وهما يقتربان مني.

ـ لا تخرجا الليلة.

ـ لماذا؟

ـ لكي لا يأخذوني الى بيت محمد حبيب.

ـ من هم يا أبي، من هم..

XI

رفع جدي الشيخ أحمد نفسه من النعش المحمول الذي كانوا يُنزلونه به الى المقبرة. كان الخلق كثيرين من حوله وأنا أمشي بنيهم حينا، وحينا أرى نفسي قاعدا أنتظرهم على قبر عال. كثيرين كانوا. حتى انني أنسى أنهم أتوا لدفن جدّي فأراهم يصعدون نحو بيت كبير وبيارق كثيرة تلوّح من فوقهم. يعودون الى المسير باتجاه المقبرة حين تصل الى أذنيَّ الأصوات التي تطلع من خبط اقدامهم على الارض. أتميّز بيرق ضيعتنا فأراه فاردا بلا رفرفةٍ كأنه انفتح من غير ريح وأبان عن بيت الشِّعر الذي خُطَّ في وسطه. كان أخضر متَّسعاً وفوق الحروف الممتدة على عرضه القبضتان الممسكتان بمقبض سيف واحد.

عرفت أنَّ جدّي الشيخ أحمد كان يقصدني حين رفع نفسه من نعشه، غير أنني شاغلت نفسي بالنظر الى أرجل النازلين به. لكنه عاد الى طلبي مرَّة اخرى. رفع نفسه من النعش ثم انزاح الى طرفه كأنه يفسح لي مكانا بجانبه. أخذت القبضتان تحزّ كان السيف علوّاً وانخفاضاً فداهمني خوف من أن ينفضّ جمعهم ويتدافع فيسقط جدّي من نعشه على الارض. ورأيت ان الفوضى قد دبّت فيهم حقا وأخلى اعمامي مواضعهم وأخذوا يتهامسون وسط الجمع كأنهم يُعدُّون لقتال سيقضي فيه لا بد خلق كثير. كنت أراهم من موضعي على القبر العالي، خائفا،

لا يفارقني الشعور بكبري وبأنني لست إلاّ ما كنته في أيّامي الاخيرة.

أيقظني جزعي من ابتداء القتال وامتداده إليّ من دون أن تكون لديّ القدرة على القيام من مكاني. كنت في ثيابي نفسها التي لم أسأل نفسي في المنام ان كان يليق ان احضر بها جنازة جدّي. هي نفسها بيجامتي المقلّمة السميكة فوق القميص الابيض المهترىء القَبّة. هذا أنا أدخل الى المنامات وأخرج منها بأهون من تنقُّلي بين غرفتين، إذ ليس عليّ أن أفتح بابا او أغلقه. كنت وحدي كبيرا شائخا بينهم كأنني لم أعرف جسما سوى هذا الذي أنا فيه. يظلُّ هو نفسه في المنام من أجل ان يتأكد لي انني في آخر العمر. لأتيقن ان هذه هي هيئتي. تأتي هي ذاتها في المنام لتحفُر ملامحي حفرا، كما لو أن أحدا يكزُّ بقلم سميك خطوط صورة مرسومة. ذلك لكي لا انسى ابدا انني في هذا العمر، ولكي أعرف ماذا أنا قبل ان افعل شيئا او أفكّر في شيء. أسأل نفسي كيف يجب عليّ أن أكون وأن أتكلم أنا الذي صرت قريبا من المئة. قلت لابن ابني كيف تتركونني وحدي وأنا عمري مئة سنة. وقلت له ايضا سأنهي حياتي بنفسي طالما ان عزرائيل لم يقدر عليّ. كيف يا جدّي؟ قال احمد وهو يلاعب عصاي بيده. بالحقنة، قلت له من فوري، حقنة مثل التي اعطوها للحاجة آمنة ليخلّصوها من الوجع. هذه أسرار يا جدّي، لا تقلها، قالت اختهم ضاحكة فيما الجالسون يُبعدون وجوههم لأنني خرَّبت لهم سهرتهم. او أرمي بنفسي من هنا عن شرفتكم. لا تفعلها، لا تفعلها يا جدّي، لا تحمِّلنا المسؤولية، قال أحمد وهو يمثِّل من يتهيّأ لمنعي. اقعد، اقعد، قال لي الكبير بينهم حين رآني أكاد أبكي. لعن الله هذا العمر ما أطوله، قلت له شاكيا طريقتهم في مخاطبتي. لم يصل أحد في الضيعة الى هذا العمر. لا يا جدّي، عمرُك أقلّ من مئة سنة، وأقل من تسعين أيضا. واخذ يفصِّل لي كيف انني أقل عمرا مما أعتقد، ظانا انه يمكّنني بذلك من أن أبدو لنفسي مثل رجال اعرفهم.

حين جاءني ابني في الصبح وجدني ممسكا بالدفّاية غير متجرّىء على تركها

خوفا من ان اقع .

ـ ما بك يـا أبي، قـال لي فيـما هـو يحملني من ابطي ويضعني على السريـر. كانت يده ممسكة بفلقة رغيف ملفوفة اذ كان يشك في انني سآكل هذه المرة ايضا .

ـ ما بك يا أبي؟ سألني مرّةً ثانية حين بدأت أتهيّأ للبكاء .

ـ البارحة مات جدّي الشيخ أحمد وغدا سألحق به.

سألني ان كنت رأيت ذلك في منامي فلم أجب . نظرت اليه ليعيد سؤاله مرة ثانية .

ـ هل رأيت جدّكَ في المنام؟

لم أجب ايضا . وبقيت أنظر اليه كما لو انني مستهجنٌ كيف يخرج الكلام من الأفواه . حتى أنني توقّفت عن اتخاذ هيئة الباكي فيما أنا انظر اليه يسوي اللحـاف على جسمي ويغطيّني حتى رقبتي . قال للذين أتوا يوم مـرضي الـذي أوقفني عن الأكل إن عقلي سليم لكن يتوقّف جريـان الـدم في رأسي للحظـة فـأشتّ وأصير أحكي من مناماتي . كان يمثّل لهم ما يقولُ بأصابعه مقلّداً ما يفعل الأطبّاء . يمدُّ سبابته الطـويلـة التي جعلهـا الشريـان الـذي في رأسي ويلتقطهـا من منتصفهـا باصبعين من يده الثانية ليريهم كيف ينحبس الدم فجأة ، ثم يفلتهـا بعـد قليـل لينساب الدم الذي أرجع معه الى سويّتي . كانوا يحدّقون بأصـابعـه وهم يصغـون اليه . أربعة رجال أو خمسة صمتوا أمامه تعويضا له عن موت أبيه الوشيك . وهو راح يتفنّنُ في كلامه عنّي ومعرفته بمرضي لعلمه أن الكلام متروك كلّه له . لا يقطع كلامَهُ أحدٌ ، ولا يسأله أحدٌ الا ليذكّره بأنه يستطيـع أن يفصّل اكثـر ان شـاء ، أو يستطيع ان يبدأ حكايته من جديد ، من بدايتها ، أو ان يرفع أصابعـه المتشـابكـة عاليا فوق رؤوسهم ، باتجاه الضوء ، من أجل أن يسهّل عليه تمثيـل شريـان رأسي الذي يحسبونه ثخينا غليظا وذا عقد .

ـ أنا فلان، هل عرفتني؟ قال كلٌ منهم عند دخوله فيما هو يُدني وجهه مني ويلتقط يدي المرتخية حرصا منه على مصافحتي. أُزيح رأسي قليلا لكي أبدو أني عرفته وأني أرحّب به في وقت واحد.

أزيح رأسي قليلا. أقلّ مما يفعل غاف لكي يُبعِدَ عن وجهه ذبابة لن تطير.

من مرضي ودوختي يقول لهم، ومن خلوّ جسمي من القوّة ومن فراغ معدتي التي باتت متقلّصة مضمومة مثلما تتجمع الأصابع وتنضم حين يُكنّى بها عن ذلك.

ـ عرفتني يا جدّي، يقول، فأنظر اليه متململاً متفحّصا كأنني قبلت ان يمتحنوني مرّة أخرى.

ـ أنت محمد، اقول.

انا لست هو يا جدّي، يقول، وينظر إليّ محدقا كأنه يمنحني فرصة ثانية.

يشكلُ عليّ أمرُ أعمارهم فأحسب كبارهم صغارهم. كأنّهم كبروا في غفلة مني فأُعطي لواحدهم إسم اخيه. كما أخلط بين أهلهم فأنسب لابنتي الصغرى ولدا هو لأختها.

ـ ما بها يدُك يا جدّي؟ يسألني حين أتشاغل بالتحديق فيها عن وجوههم التي تدنو مني لكي اعرفها.

ـ لا شيء، اتمتم، وأُخفضها مباغتاً كأنني ضُبطت وأنا أحدّق في موضع منكشف من جسم امرأة. غير أني أعود الى التحديق فيها مستأنفا رسم خطوطها وحدود اظافرها وتَبيُّنِ شبهها بقدميّ ذات العظام الكثيرة. وأجد أنني لم أزل آلف نفسي ومازلت قادرا على استخلاص هيئتي وأنا في أعماري الماضية. أُبعدها عن وجهي وألتفت الى واحدهم أكلّمه انا هذه المرة.

ـ قل لهم أن يجيئوني بالطبيب من النبطية .

أقولها بنبرة سريعة ، ولا أكرّرها مرّة ثانية . كما لا أنتظر ان يخرج من عندي ليقول لهم يريد أن تجيئوه بالطبيب من النبطية . كأنها كلمات صدرت من سهوتي وغفلتي .

ـ أريده ليعالج وجعي لا مرضي ، أقول وأرفع رأسي ليروا وجهي متقلصا متألما .

ـ من أين يا جدّي ؟

ـ من النبطية ، أجيبه بنبرة سريعة عالية ليعلم أنني عرفت انه يُضحكهم عليّ .

ـ سنُحضره يا جدي ، انتظرنا .

ويخرج من الغرفة مصطحبا واحدا معه . يغيبان وقتا قليلا ، ثم يعودان مفتعلَيْن جلبة عند الباب .

تفضل يا حكيم ، أدخل .

يخطو من بينهما باتجاه قدميّ المكشوفتين ويبدأ بتفحُّصهما من دون أن يلتفت ليرى وجهي . يدني عينيه منهما ثم يديرهما الى يساره حيث وقفا . يتمتم لهما كلاما سريعا ثم يعود الى التحديق بقدميّ . .

إنه أرذل العمر . قلت بلهجة فصيحة لكي لا ينفجروا بالضحك الذي سينسيهم انني بينهم . خرجوا من الغرفة هاربين ضاحكين له لأنه كاد يفلح في تمثيل دور الطبيب . غير أنهم لن يتعدّوا المصطبة . سيبقون هناك واقفين يعيدون تمثيل الحكاية عشر مرات يدخل هو في نهايتها متّخذا سحنة من وصل لتوّه :

ـ صباح الخير يا جدّي ، هل عرفتني ؟

* * *

ـ انهم يلعبون بي .

قلت لابني من دون أن أرفع رأسي عن المخدة .

ـ يأتون كلهم ويبدأون بالضحك مني .

ـ من هم يا ابي، من هم؟

ـ أولادكم، أولادك وأولاد اخوتك . يسألونني اشياء لكي يضحكوا من اجاباتي، أمس أدخلوا إليّ ابن اختك وقالوا لي إنه الطبيب .

ـ وضحكوا؟ سألني مستنكرا متعجبا .

ـ قل لي، لماذا كلّهم في الضيعة، ولماذا أتوا من دون أهلهم؟

ـ وهل ضحكوا كثيرا؟

سألني بصوت جعله عاليا مقاتلا وظلّ يُعليه حتى وصل به الى حدٍّ لم تعد تحتمله غرفتي ذات الاثاث القليل . كان يطلع قويا مرتجا كأنه يصعد من قاع طنجرة كبيرة ويترجّعُ بين جنباتها . يعليه هكذا دفاعا عني من دون أن يدري أنه يُخيفني به وحدي . بقيتُ مُسْبِلاً جسمي ومرخيا يديّ لظني أنه سيحوّل غضبه إليّ في ما لو حرّكت شيئا من جسمي . زعران، قال، هم وأهلهم . وقال ان هذا البيت ممنوع دخوله إلا لمن يعجبه ومن سيكون تحت امره . تحت أمر حذائه، قال وهو يتقدّم باتجاه الباب الذي لم يكد يصله حتى انتهى من صراخه وغضبه .

* * *

ـ أين أمك؟

قلت للذي مثّل عليّ دور الطبيب حين أتى بعد الظهر .

لم يجبني .

أرسَلَ في الغرفة خطواتٍ مهملة وبدا نافد الصبر لأنه وصل قبلهم . وقف لِصْقَ النافذة وأخذ ينظر الى البوابة العالية مُصَفِّراً خوفا من ان يتمكن منه صمته فلا يعود قادرا على اضحاكهم حين يجيئون . سألتُهُ عن أمّه مرّة ثانية . ، فلم يجب ايضا .

ـ أين أمك ، ألا تفهم؟

غمغم حروفا وأصواتا خفيفة أطلعها من شفتيه لظنه أنني لن أسمع ، لكنني سأتظاهر بأني سمعت . أخلى مكانه لصق النافذة واتجه الى الباب لكي يبدأ رفقته معهم من فور وصولهم .

وعرفت أنهم أطلّوا من اطلاقه حركته وابتسام وجهه . دخلوا الى الغرفة ضاجين مُحدثين أصواتا كثيرة طلعت من قوّة أجسامهم وخبطهم أقدامهم على الارض .

ـ كيف أصبحت يا جدّي؟

سألني أحمد ليتبيّن حالتي ويرى ان كان يَعمل الشريانُ الذي في رأسي .

ـ هل عرفتني يا جدّي؟

قال لي واحد رفع رأسه من بينهم .

ـ انه طبيب ثان من النبطية .

قال احمد ، حين رآني أنظر الى حيث طلع الصوت .

* * *

ـ ألن تأكل يا أبي؟

رفعتُ عينيّ مباغتاً واخذت أنظر اليه كأنني أتعرّفه على مهل. أعادها مرّة اخرى بصوت أقلّ علوّا وأدنى الرغيف الملفوف من عيني. أبعدته بيدي لأنه سيظل مدنيه من وجهي وعيني ان لم أزحه عني.

ـ يجب أن تأكل يا ابي، ستموت ان بقيت هكذا بلا أكل.

ظللت فاتحا عينيّ لكن ساهيا عما تقعان عليه، وأفكّر في جسمي الذي يراه ابني ضئيلا متكوّما تحت اللحاف. ولم ترمش عيناي ولم تتحرك يدي المسبلة على المخدة.

ـ ألن تأكله يا أبي؟

قال فيما هو يُخفض الرغيف ليصير قريبا من عينيّ، وظللت أنا ساهيا لا أحركهما.

ـ يا أبي.. يا أبي..

قالها مرتين، مباغتا مذعورا، كأنه ينادي شخصا كان معه في الغرفة واختفى فجأة من أمامه.

كان عليّ أن أحرّك شيئا فيّ ليعرف أنني لم أمت. ادرت له وجهي لكن عينيّ ظلتا ساهيتين كأنهما تنظران اليه ولا تريانه.

عرفت ان البياض الخفيف الذي يغشاهما زاد نظري ابتعادا وذهولا وبدوت، حين التفتّ اليه، كأنني لم أستطع ان أُخرج نفسي من حلقة الوجوه التي كنت أكلّمها أو أستمع اليها.

اضطرب وقوفه من خوفه وبدا كما لو أنه يتهيأ للفرار من الغرفة هربا من المخلوقات التي أتوهمُها وأقتربُ منها حتى تصير أقرب إليّ منه.

يرى أنني بدأت صحبتي مع الميّتين وقطعت، بجسمي ونفسي، شوطا كبيرا

اليهم . ويرى أنني حين أسهو أو أغيب فانما أكون مديرا وجهي الى جهة الموت . أنحرف اليه من الحدّ الذي أكون عليه ، تاركا الحياة التي في الجهة الاخرى قليلة و لا تقوى على أن تُبقيني فيها طويلا . وحين أسقطت رأسي على المخدّة وجعلتُ عينيّ تنظران اليه ، رأى ان من كنت أكلّمهم أمهلوني لحظة ، وظلّوا في أماكنهم لم يغادروها ، بانتظار رجوعي .

XII

لا تكفّان عن الضحك وقول الكلام البذيء ما أن تظهرا في أوّل الدار. تتباطآن في المشي وتتمايلان ما أن تخطوا عتبة البوابة العالية وتقطعا ساحة الدار متباعدتين كأنهما تهمّان بأن تبدآ به عبثا وتخريبا. تقطف إحداهما وردةً من الحوض الصغير وتروح تشمُّها مقلِّدة ما تفعل البنات الصغيرات. تمسكها بيدها الخشنة المتشقِّقة وتدنيها من رفيقتها التي تكون على مسافة منها في الطرف الثاني من ساحة الدار. حتى انهما تنعطفان باتجاه الدرج المؤدّي الى سطح غرفة البقرات، كأنهما تبحثان عن شيء أضاعه الأولاد عشيّة البارحة. تعبثان في ساحة الدار قبل أن تصلا إليّ كأنهما دخلتا الى بيت هجره ساكنوه. وحين تصيران على مصطبتي تقفان وقتا تتحادثان قبل أن تميل واحدة الى شبّاكي المفتوح وتبدأ البحث عني في الداخل.

ـ انه مستيقظ.

تقول لرفيقتها المنشغلة بالنظر الى أسفل درابزين المصطبة، من دون ان ترفع نظرها عني.

لم تكونا أكثر احتشاما حين أتى بهما ابني في المرة الاولى لتنظّفا سريري وغرفتي، أين أختاك، سألته، فاكتفى بالنظر إليّ متفكّرا في ما يمكن ان يقوله.

بدأتا بمهازحتي أمامه وهو ظل ساكتا لظنّه انني لا افهم الكلام البذيء الذي تقولانه. وهما ازدادتا عبثا بي حين تركهما عندي وصعد الى بيته. اقتربتا مني متجرئتين متّسعتي العينين، متظاهرتين بأن الجوّ قد خلا لهما لتعبثا بي وتنزعا عني ثيابي. كانتا قبيحتين ومتشابهتين حتى انني تعجبت لماذا تزوّجهما الرجل ما دام ان الثانية لم تزد له شيئا على الاولى. ازاحت واحدة اللحاف عني لتنظر الثانية الى سريري وترى ماذا فعلت فيه.

ـ لماذا لا تفعلها في الحمّام يا جدّي؟

قالت ابنة ابني التي لم تَقْرَفْ مما رأت كأنني أستطيع ان اقوم إلى الحمّام بمجرد أن ينبّهني احدٌ إلى أنّه يحسن بي أن أفعلها فيه.

ـ أين عمتاكِ، سألتُها، اذ شعرت بأني يجب أن أقول شيئا أُفهمها فيه أنني مازلت مالكا أمري، وأنني مُحرج، مثلها، لعدم تمكّني من ضبط حاجتي. لكنني أدركت فجأة أنه لا يجدر بي أن أكلمها هكذا ما دام انها ستزيل عني ثيابي. اذن، أجعل وجهي مبتعدا وعينيّ غائبتين ذاهلتين كما يحدث لمن توقّف الدمُ عن الجريان في رأسه. هذا لكي أستطيع أن أسلّم جسمي لها وأجعله يطيعها، والا فكيف سأنكشف لها ان كانت عيناي تدركان ما تريان.

بقيت ساكتا حين اقتربتا مني بخطوات جعلتاها راقصة وحرّكتا لها أيديهما وهزتا رأسيهما. نظرت اليهما كأنني لا أعي ما يدور أمامي لانه سيكون صعبا عليهما تنظيف جسمي بينما رأسي يراقب ذلك من الاعلى. كأنه منقطع عما تحته ومتكبّر عليه. عندها سيمنعُهما زوجُهما من الدخول الى غرفتي وتنظيفي وسيقول لابني انني سأراهما تريان عورتي وانه يكون بذلك كمن يسلّم زوجته لرجل غريب. تتراقصان وهما تمشيان وتقولان كلاما بذيئا لتتمكنا من فعل ما ستفعلانه. أما أنا فأُفرغ عينيّ وأجعلهما غائبتين ذاهلتين لأتمكن من احتمال رؤية

ما ستريانه . ولا أسأل ابني هل هما هكذا حين تكونان عندك في الشغل، اذ أكون أجازف بجعلي رجلين يتخاطبان على سويّة واحدة بينما واحدهما يغوط في ثيابه وسريره . أُفرغ له عينيّ هو ايضا ولا أجيبه عما يسأله لكي لا أبدو أمامه مقسوما الى اثنين، واحد يغوط في ثيابه وآخر يساعد من حوله في تدبير أمره .

يتّخذون أدواراً يمثّلونها أمامي لظنّهم أن على الشخص أن يكون سواه امام رجل خَرِف . وأنا لا أكون أقلّ حيلة منهم فأبدّل هيئتي كما اشاء، أقلّص وجهي من الوجع وأُفرغ عينيّ وأصرخ من قلبي حين يرفعون أصواتهم بالصياح عليّ . لا يلاقونني الا بأدوار يتّخذونها، وحين ينقلبون الى محادثة بعضهم يرجعون الى هيئاتهم الاولى من جديد ويتكلمون بأصوات عالية لظنهم انني لا اسمع الا الكلام الذي يوجه اليّ .

هل مازال قادرا على الانتصاب؟

قالت احدى المرأتين لابني فيما هي تنقّل نظراتها بين رفيقتها وبيني .

ولم يجبني حين سألته عن أختيه، بل نظر اليّ متفكرا في الكلام الذي يجب أن يُقال لي . وأنا لم أسأله مرة ثانية فسيقول لي عندها ان من يفعلها في سريره لا يحقّ له ان يختار مَنْ سينظفونه . حتى أنه كاد يضحك لهما حين أخذتا تتصرّفان مثل عروسين تتمنّعان عن الدخول الى مخدع الليلة الاولى .

ـ ماذا فعلت بنفسك؟

قالت الثانية بعدما رفعت رفيقتها اللحاف عني .

اشمأزّتا مما رأتا، وكادتا تخرجان من حالة المزاح وتنسيانها . ولكي أبقيهما عندي، جعلت أنظر الى حيث أشارتا كأنني اطيعهما في أمر لا أدريه . قبيحتان وقحتان . تقرفان وتفحشان في وقت واحد . تحملقان في وسطي كأنهما تبحثان عن عضوي بين الوسخ الذي يغطّيه ويغطي ما حوله .

ـ لقد اختفى .

قالت لرفيقتها التي لم تتوقّف عن النظر كأنها تبحث عن أشياء ضائعة .

ـ انزليه معي الى الارض ، احمليه من كتفيه .

نظرتُ الى حيث ستضعانني وأنا محمول خفيفا بين أيديهما ، وخفت من أن ترمياني قبل ان تصلا بي الى الارض .

ـ على الحصيرة ، لكي لا يبرد جسمه ، هاتي المخدة لنضعها تحت رأسه .

كانتا قويّتين . ظلت الثانية ممسكة بي بيد واحدة حين مدّت يدها الاخرى الى طرف المخدّة . لكنهما انهمكتا وكفّتا عن المزاح . ظلتا ممسكتين بي ولم تتركاني ، ورأتا أن تضعاني على الكنباية .

ـ ضعي فوقها الشرشف لكي لا يوسخها هي أيضا .

ـ أنزليه . ضعيه على الارض . سأظل أنا ممسكة به .

كنت خفيفا ضعيفا بين ايديهما وهشّ العظام ، وكدت أشير عليهما بأن تضعاني على الارض من جهة قدميّ وتظل التي تحملني من كتفيّ ممسكة بي .

ـ أتركيه أنت . ضعي قدميه على الارض . على الحصيرة .

عادت اليهما بذاءتهما منذ ان وضعتاني على الكنباية وابتدأتا بنزع الاغطية عن السرير . تحركان مؤخرتيهما وهما تنتقلان بين السرير وتتمازحان بالقول انهما مدعوتان الى مخدع ينتظرهما فيه غائطي . جعلتا وجهي الى ناحية السرير لأراهما فتتمكنان من اضحاك احداهما الاخرى اذ تشركانني في عَيّهما . كان السرير ملوثا حتى من أطرافه فعرفت ان وقتا طويلا قد مضى عليّ من دون ان أعلم انني فعلتها . قال لي ابني حانقا رافعا صوتَه ، من أين تأتي بهذا وأنت لم تأكل منذ شهر؟ ولم يفعل شيئا . أبقاني في سريري وخرج لكي لا اقول له اين اختاك فيبدأ يشتمهما

ويقول انهما تشمّان الهواء في بيروت، لأفهم أنه يشم شيئا آخر وهو في غرفتي.

ـ تعالي

قالت احداهما فيما هي تمسك بيديها طرف الفرشة الاسفل لتحملاها كما حملتاني.

ـ لقد قلبوها قبلنا، قالت رفيقتها وهي تلهث.

ـ هل نأتي بغيرها؟

نظرتا اليّ لأدلهما أين وضعوا فراشي. لم أقل شيئا. لم يطل بهما الأمر حتى رأتا سرير الحاجة خديجة من فرجة الباب.

ـ لماذا لا تنام هناك؟

حوّلت عينيّ الى سريري لأفهمهما بأنني سأظل أنام هنا، في سريري. وهي نظرت إليّ نظرة طويلة همّت بأن تقول شيئا في آخرها.

ـ تعالي اشتغلي.

قالت لها الثانية التي رفعت قفاها الى الاعلى لتتمكن من بلوغ طرف سريري.

ـ لا يريد ان ينام في السرير النظيف، لقد تعوّد على الروائح.

ـ إن نام في تلك الغرفة فسيجعل لها رائحة أيضا.

كانت قدماي ترتفعان على حافة الكنباية، عاليتين رقيقتي الجلد ومُحمرّتين حول العظمين الزائدين اللذين تقبّح رأساهما. خفت ان ترياهما فتبدآن تتهازحان عنهما وتمسكانهما بأيديهما. كما خفت ايضا ان انزلهما الى اسفل الحافة اذ بدتا لي كبيرتين وستعرف المرأتان انني انزلتهما لكي اخبئهما، فتبدآن مزاحا اكثر بذاءة.

ـ لماذا اثنتان؟ قلت لابني حين لم يجبني على سؤالي عن أختيه.. واحدة

تكفي . لكنني ادركت ان زوجها لن يقبل بذلك ايضا . سيشبّه ذلك باختلاء رجل وامرأة في غرفة مقفلة ، وسيرى ان عقلي وشهوتي سيعودان إليّ ان وجدت نفسي عاريا أمامها . تساءلت اين ستنظفانني طالما انهما ترتبان السرير وتسويانه ، وهما لن تفعلا ذلك على الكنباية ايضا .

ـ هل ننظّفه بالماء البارد؟ تعالي ننظفه بالماء البارد . .

والتفتتا معا إلي لتريا كيف وقع ذلك عليّ ، وجدتاني أحملق فيهما كأنني لم أفهم ما قالتا .

ـ هل تحب الماء البارد؟ قالت احداهما ، فجعلتُ أبدو غير سامع ولا فاهم . كانتا قد انتهتا من ترتيب السرير فعرفت أنهما ستتجهان إليّ . اقتربتا فجأة ، كأنهما اتفقتا من قبل على ما ستفعلانه . أنزلتُ قدميّ عن طرف الكنباية ودستهما في قماشها عند زاوية الحافّة .

ـ أرِنَا الحمامةَ الآن ، قالت ، فيما هي تنحني على بيجامتي قريبا من ركبتيّ . اثنتان من أجل ان ترافق احداهما الأخرى . من أجل ان لا اكون عاريا أمام واحدة ، يقول زوجها . أما هما فتأتيان معا لتتعاونا على تحمّل رؤية غائطي وتنظيفي . هذا الذي لم يأتِ من الطعام ، بل هو أوساخ أخرجها من جسمي لكي لا آخذها معي الى الآخرة .

ـ أرِنَا الحمامةَ ، قالت مخاطبة رفيقتها التي مدّت يدها الغليظة المتشققة كأنها تهمّ بأن تأخذ بها شيئا . يجامعهما معا في بيته فبذلك لا يعود يرى ايديهما المتشققة وأسنانهما المصفرّة لأنه يكون منشغلا بتقطيب نظره بينهما وتحديد موقعيهما . يكون ينظر الى ما تفعل الواحدة بيديها لا الى يديها . همّتا بأن تخلعا عني ثيابي من وسطي لكنهما عادتا فرأتا انني سأوسخ الكنباية .

ـ كان يجب ان ننظفّه على السرير .

قالت واحدة قبل ان يقع بصرُها على الحصيرة .

ـ ارفعيه من كتفيه ، قالت ، فيما هي تُحيطُني بذراعيها من منتصف ساقيّ .

ـ هنا ، هنا ، حيث وضعناه أوّل مرة .

أنزلتاني الى حيث وضعتاني أول مرة . ثم خلعت احداهما بيجامتي شادّة اياها من جهة ركبتيّ ، واخذتا تنظران معا الى حيث عضوي .

ـ لقد اختفى ، قالت من أخلعتني ، بينما راحت الثانية تنظر من مواضع مختلفة الى وسطي كأنها تبحث عن شيء ضائع .

مددت يدي لأخفيه حين امتدت اليه يد لتلتقطه ، وأطلقت صوتا حين مالت اليد لتداورني وتلتقطه من ناحية اخرى . .

ـ يخاف عليه ، قالت لرفيقتها التي ظلت واقفة في مكانها ، اذهبي هاتي الماء ، قالت فيما هي تبتعد عني مؤجلة بذاءتها الى حين تعود رفيقتُها .

كان باردا ، وحين ابتدأتا بدلقه على ساقيّ كفتا عن الكلام كأنهما تنتظران زجري لهما وارتفاع صوتي عليهما . لم أقل شيئا .

ـ اقلبيه لنغسله من الخلف .

أرادتا ان تزيلا بالماء ما التصق بي من غائطي قبل ان تبدآ تنظفاني بالخرقة التي وضعتاها على حافة اللكن .

ـ أبقيه هكذا لكي نليّف مؤخرته .

ـ خذي أنت .

كانت تمر الفوطة َمرّاً على فَخْذَيَّ لأن اليد التي تمسكها تحاذر ملامستي .

ـ اذهبي ضعي ماء في اللكن .

كان الماء الذي دلقتاه يتسرّب من الحصيرة الى الثقب تحت العتبة ويخرج الى المصطبة، كما كان يحدث حين تغسلهم الحاجة خديجة. لكن خيط الماء يسيل دون رغوة هذه المرة. ماء وسخ عليهما ان تزيلاه فور انتهائهما مني. تغسلاني بالماء وحده.

أدلقي عليه ماء.. أدلقي.

لم أقل شيئا حين دلقتا الماء البارد على ظهري وكتفيّ. كانتا قد اخلعتاني ثيابي ورمتاها في طريق الماء المنحدر الى ثقب العتبة. ولم تكونا أكثر رأفة بجسمي مما كانتا بثيابي وهما تخرجان منها رأسي ويديّ. حتى أنهما أنزلتا رأسي وظهري الى ما بين رجلي من أجل ان لا تميلا باتجاهه. هكذا فعلتا ايضا حين جرّتا يدي جرّاً اليهما لكي لا تقوما باتجاهها. تجذبان ما تريدان غسله الى ناحيتهما، وأنا صامت مُخفض رأسي ومسلِّم جسمي الذي قطع أشواطا في الطريق الى موته.

***

لم تكفّا عن الضحك وقول الكلام البذيء منذ ان دخلتا من البوابة. تباطأتا في المشي وقطفت احداهما وردةً من الحوض الصغير وأخذت تشمُّها مقلِّدة ما تفعل البنات الصغيرات. وحين وصلتا الى المصطبة نظرتْ واحدةٌ من النافذة فرأت وجهي قريبا منها. رأت عينيّ بعيدتين كبيرتين خلف زجاج النظارتين، ويدي ممسكة بقضيب النافذة الحديدي. انه مستيقظ، قالت لرفيقتها التي كانت تنظر الى أسفل درابزين المصطبة، لكن دون ان ترفع نظرها عني.

ـ لا أريدهما، قلت لابني حين أتى ليراني نائما بعد اغتسالي.

ـ ماذا فعلتا؟

ـ غسلتاني كما يُغسل ميت وأرجعتاني وسخا الى سريري.

لم أبعد عيني عنها وبقيت ممسكا بقضيب النافذة. قالت لرفيقتها انني مستيقظ بصوت نابح لكي أخاف وأُبعد وجهي ويدي عن النافذة. تقدمتا باتجاه الباب، وحين أطلتا منه وجدتاني أنظر اليهما ويدي لم تزل على قضيب النافذة.

ـ هل صرتَ أنظف من المرة الماضية ؟سألتني احداهما وهي تقترب مني بينما أخذت الأخرى تدسّ الوردة في أنفها حتى لا تشم رائحتي.

***

بيروت ــ ليماسول
١٩٨٧ ــ ١٩٨٨

كان فراغ مطبعة المتوسط
من طباعة هذا الكتاب
في الأول من أيار ١٩٩٠

للمؤلف:

- بناية ماتيلد (رواية)

دار التنوير، بيروت ١٩٨٣

- تحت شرفة انجي (قصص)

دار التنوير، بيروت ١٩٨٤

- روض الحياة المحزون

دار التنوير، بيروت ١٩٨٥